كتاب
فضل العطاء على العسر

لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

صححه وحققه وعلق عليه

محمود محمد شاكر

القاهرة

١٣٥٣

عنيت بنشره

المطبعة السلفية ومكتبتها

لصاحبهما محب الدين الخطيب

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبعدُ فان كتابَ فضل العطاء على العُسْر لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ ، مرآةٌ تنعكس عليها فضيلةٌ من فضائل العرب لايكاد يضارعهم فيها غيرهم من أمم الارض ، وهو على ذلك سِفرٌ من أسفار الادب العربيّ التي يرغب فيها الناس لما يجدونه فيها من مُتعةٍ وفائدة ، وقد سبق الى نشر هذا الكتاب في سنة ١٣٢٦ الاديبُ الفاضل الاستاذ محمود الجبالي باسم (كتاب الكرماء) ، فلما صارت نسخهُ عزيزة على طلاّبها رجوتُ صديقي الاديبَ الضليع الاستاذ محمود محمد شاكر أن يقوم بتصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه ، فقام بذلك على الوجه الاكمل ، وردّ الى الكتاب الاسمَ الذي سماه به مصنّفه رحمه الله ، فجاء كما يرى القارئ زينةَ المكتبة العربية . فشكراً للاستاذ السيد محمود شاكر على هذه المأثرة ، وأرجو الله أن يجزيه عني وعن المؤلّف والقرّاء أفضل مايجزى به عباده العاملين

محب الدين الخطيب

كلمة

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أنَّ رَجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، أىُّ الناس أحبُّ إلى الله ؟ فقال : أحبُّ النَّاس إلى الله أنفعهم للناس ، وأحبُّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ سرورٌ تدخِلهُ على مسلمٍ ... تكشفُ عنهُ كرْبَةً ، أو تقضى عنهُ دَيْناً ، أو تطرد عنه جوعاً . ولأنْ أمشى مع أخٍ فى حاجةٍ أحبُّ إلى من أنْ أعتكِفَ فى هـذا المسجد ـ يعنى مسجدَ المدينة ـ شهراً . ومن كظَمَ غيظهُ ـ ولو شاءَ أن يمضيَهُ أمضاهُ ـ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً ، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيَها له ثبَّتَ الله قدميه يوم تزول الأقدام »

ولم أرَ فى الحياةِ أضلَّ من رَجُلٍ يبسُط لهُ الله من نِعْمته وبركته ويمُدُّ له أسبابَ الغنى ولو شاءَ لَمنعَه ثمّ لا يجدُ بياناً يشكرُ به اللهَ على ما أمدَّه من الرزق أبينَ من حرمانِ أخيه من الناسِ فَضْلَ ما أنعم الله به عليه

ثم لا أدرى كيف لا تنبسط نفس امرىءٍ بالعطاءِ وهو يعقل ! ؟ ألم ينظُرْ إلى نشأته ونشأة أخيه ، وكيف كان كلٌّ منهما طِفلا لا يملكُ من أمرِ نفسهِ شيئاً ، حتى إذا بلغَ أشُدَّه واستوى آتاهُ الله ومنع أخاهُ ، وكرَّمهُ بنعمته ، وحرَمَ أخاه ، ورَحِمَه الله ، وأحوَجَ أخاه . أفلا يعلم أن لو يشاء

الله لكان هو المحرومَ الممنوعَ الذى تُصرِّفه الحاجةُ وتسوقُه الضرورة وتضربُه حوادثُ الايام ، أم اطّلعَ على الغيب فرأى ما آتاهُ الله باقياً عليه ، فما يخشى تقلّبَ الدّهر به ، ولو كان ذلك لكان أحْرَى بالبذْلِ وأجْدَر بالجودِ وأبْعد عن الشحّ

ولكنْ . .. ولكنْ غيّرتِ الايّام فِطرة الله التى فَطرَ النّاس عليها فزاغتْ طبائعُ قومٍ عن رَشَدِها وصرّفها الهوى وقادَتْها الشهوات ، فزيّنَ لهم أمرَ الدُّنيا فَنسوا وغفلوا وضلُّوا وأضلُّوا وكان أمرهم فُرُطا . والفطرةُ الاولى فى الإنسانِ فطْرة مستقيمة لا زَيْغ فيها ولا عِوَج ، لأنه ـ كان ـ لا يبالى بشىء من أمور الحياة إلا بما يقيم صُلبه ويَرُدُّ شهوَةَ الطعامِ ، وما يقيه لذعة البرْدِ ، ويدفعُ عنه وقْدة الشّمْس ؛ وما فَضَل عن ذلك من أمر الدُّنيا فسبيله سبيلُ كلّ ما لا يَعْنى ولا يفيد . وكان الحِرصُ .... ولكنّه كان حرصاً فى حدودٍ من الإنسانيّةِ البريئة المُصفّاةِ كانَ حرصاً على بعض أسبابِ الحياةِ ممّا يقيم الأوَد ويسدّ الخلّةَ ويَقى مصارِع الضُرِّ ، ثم امتدّ مع الزّمن والحضارة والعُمْران والشهواتِ حتى أصبح حِرْصاً على كل أسبابِ الحياة من مالٍ وبنينَ وزُخرف ومَتاعٍ

ومن غريب حكمةِ الله فى الانسان أنْ جَمّع فيه الغرائز كلّها خَيرها وشرّها ، مما تفرّقَ فى الحيوان كلِّه ، ثم مَنَحهُ العقلَ المدبِّر المفكِّر الذى نقص من الحيوان كلِّه ، ليمهّد بذلك للإنسان سبيل الرُّقىِّ والتّدرُّج . فلو استقامت غرائز الانسان على طراز واحدٍ لما كان هناك للعقل عملٌ يَنفى

به شيئاً ويمكّن لشيء ، ويزيّف أمراً ، ويثبّت آخر . وذلك لأن عمل العقل إنما هو فى تنازُع الغرائز فيه ، وهذا التنازعُ هو الذى يرْهِفُه ويحدّه ويسوّغُ له القُدْرَةَ على الابتداع والاختراع ، واستنباط ما لم يكن بَيِّناً وتبيين ما كان خفيًّا

على أن هذا العقلَ الذى أودعهُ الله تلك الفَخَّارةَ الصغيرةَ ، والذى هُيِّء ليقودَ الغرائز ويردَّ من جماحها ويكْسِرَ من شرَّتِها ، قد يذِلُّ للغريزة الجامحة فلا تزال تجرى به وهو فى غبارها كالمختبل لايستبين قَبيل أمره من دبيرِه ، وفى هذا الذُلِّ المحقُ كلُّ المحق للانسانية التى تميّزَ بها الانسان من سائر الحيوانِ . ولا تتجلّى الانسانيةُ فى رجلٍ إلا أن يكون عقلُهُ هو مدبِّر غرائزه وقائدَها وهادِيَها ، قائماً عليها لاتدركهُ الغفلة ، ولا يستبدُّ به الهوى ، ولا تُطَوِّحهُ النوازعُ . وفى هذا التركيب الحكمةُ العظمى فى تدبير الخلق ، وتسيير الحياة ، وإيجادِ التفاوُتِ بين البشر ، ولولا هذا التفاوُتُ لانساقت الحياةفى مجرى واحدٍ لايتغير ، ولانحسمتْ مادّة المَوْج الذى يعلو بالأمم وينخفض ، ولكان الانسانُ حيواناً يَرْعى المرعى ويتتبَّعُ الكلأ ويتطلبُ الصيد ويأوِى الى غارٍ أو غابٍ أو كناسٍ ولا يمُدُّ بصَرَهُ الى ما وراء ذلك من أمر الدنيا والآخرة ، ولبقى على حالة واحدة من العمران والحضارة لاتسمو ولا تتدلّى

ومن أظهر الغرائز فى الانسان غريزةُ المنفعة ، فهو لايفتأُ يتطلَّبَ المنفعة لنفسه من كل وجه وفى كل سبيل ، ثم هِيَ أكثرُ غرائز الانسان

تصرفا على حالين من المصلحة والضرر ، ولا يصّرفها فى هذين الوجهين إلا العقل أو الهوى . فاذا استحكم العقل و بَصُر قادَها الى كل مافيه الخير الانسانىُّ المشرق ، واذا غلب الهوى واستبدَّ ضَرَبَ بها كل وجهٍ حتى ترتطم فى أنواع من الشرور وظلماتٍ من الضلال لاهادىَ فيها ولادليل. وعلى ذلك فهو أسُّ الفضائل وعِمادُها أو أُمُّ الرذائل وغذاؤها ، وعَمَلُ العقل فيها إنما هو فى نفى الأَثَرةِ عنها وتدريبها على السماحةِ و البذلِ والشعور بالشركة فى نِعم الله التى مَنحها وجعلَنا عليها قُوَّاماً وسُوَّاساً ، وفى اخذها بالمذهب الصحيح فى أن المنفعة التى تَخُصُّ ليست منفعةً بل ضرراً ، وأن المنفعة التى تَعُمُّ هى السعادةُ والصلاحُ ، وإن كان نصيب الفرد فى الثانية أوكس منه فى الأولى . وعمل الهوى فى هذه الغريزة إنما هو فى تصريفها بالأَثرة ، والتفرُّدِ والاختصاصِ والحرصِ والضنّ والشحّ وتفضيل مافيه صلاح الفرد على مافيه صلاح الجماعة

ومن هذه الغريزة القوية يستمد العسُر واليسُر ـ أو السماحة والشحّ ـ اللذان أفرد لهما أبو هلال هذه الرسالة فى تقديم الأول على الآخر منهما . وكان قصد السبيل فى هذه الرسالة التى بين يديك أن نعرضها عليك دون أن نُقَدِّمَ لها أو نُصَدِّرَ ؛ وما حملنا على كتابة هذه الكلمة إلا مانجدُ فى الناس من الغدر والخيانة والشحّ فى ساعة الجدّ وأوانِ الخير ، والاسراف والتبذير فى كل مُهْلِكة مبيرة أو مَلْهاة مُضيعة ، ولقد وجدنا أيضا كثيراً من أهلها لايملُّون الازراء على العَرَب وعاداتهم

وأخلاقهم ، ويعدُّون الكَرم من نقائِصِهم . ويشكرون للأمم الاوربية صنيعَهم فى الاقتصاد والتدقيق ، ويقولون ان الاوربيين يُنصِفون أنفسَهم وأهليهم حين لايدْعون أحداً الى طعامِهم إلا أن يكونوا قد أعدُّوا له العدَّة ، فاذا لقِى الصديقُ منهم صديقَهُ على حين غفلةٍ لم يَدْعُه الى داره لان طعام داره إنما هو طعامُ أهلِها لالطعام الناس من كل غادٍ ورائحٍ .
وهذه فتنة من التدليسِ على العقل باستبدادِ هوى الحرصِ والشحّ على الغرائز الـكريمةِ فى الانسان ، وتسويلٌ من النفس الأمّارة بالسوءِ ، ومَدٌّ من الطمع واغراءٌ من الظنّ المريض فى حيازة الدُّنيا ، ولو قصدَ الرجل سواء السبيل لوجد أن أقل الدنيا كأكثرها فى مصارف الحياة ، وما يفرق بين قليلها وكثيرها إلا سحر الحياة الدنيا وشهواتها وزينتها

ولقد دخل عمرُ بن سعد بن أبى وَقاصٍ على عُمرَ حين رَجع اليه من عَمَل حمص — وكان قد جعله والياً عليها — وليس مَعَه إلا جرابٌ وإداوة وقصعة وعَصًا فقال له عُمَر — الخليفة الزاهد — ماالذى أرى بك ؟. من سوءِ الحال أم تَصَنُّع ؟ قال : وما الذى ترى بى ؟ ألست ترانى صحيح البَدَن ، مَعِى الدُّنيا بحذافيرها . قال : وما معكَ من الدنيا ؟ قالَ مَعى جرَابى أحمِلُ فيهِ زادى ، ومعى قَصْعتِى أغسِلُ فيها ثوبِى ، ومعى إدَاوَتى أحمِلُ فيها مائى لشرابِى ، ومعى عَصاىَ ، إنْ لقيتُ عدُوًّا قاتلتُه ، وإن لقيتُ حَيَّةً قتلتُها . وما بقى من الدنيا تَبعٌ لِمَا معى

فهذا هو النَّظَرُ الصحيحُ إلى أمور الدنيا عاليها وسافلها ، قليلها

وكثيرها، ولا جَرَمَ أن يكونَ مِثلُ هذا الرُجل من سادةِ الدنيا إذ لايبالِي « أوقع على الموت أم وَقع الموتُ عليه ». ولا عَجَبَ أنْ تَسْعَد أُمّةٌ يكونُ سادتُها وأغنياؤها قد صَحَّحُوا مَقَاييس الغِنى والفقْرِ على هذا المقياسِ الفِطْرِيّ الجميلِ حتى يَصيرَ هَمُّ المالِ فى بَذْلِه والسماحةِ به، لافى قبضِهِ والحرصِ عليه، ويبطل هذا العَمَل الفاسِد الذى انتظمَ أكثر المَدَنيَّاتِ والذى استبَدَّ بالمدنية الحديثة فمدَّتِ الفتنُ أعناقَها فى كُلِّ مكانٍ بوَجْهٍ من الاشتراكية والشيوعية ظَالِمٍ كمظلوم

وليسَ الكَرَمُ والجودُ فى بعثرةِ الأموالِ وإلقائها فى الجَدْبِ والخصْبِ بغير حسابٍ ولا ميزان. بل الكَرَمُ فى بَذْرِ المالِ فى الارضِ الصالحة الطيبة، التى تنبتُ نباتاً حسناً يزكو فينفع الناسَ ويزيدُ في الخيرِ، والجودُ إرسالُ المالِ على الارضِ التى تَحْيى به وتَتَحَلّى، وما سوَى ذلك من إراقة المالِ فى غير وجهٍ مقصودٍ ولا غايةٍ مستبينة إسرافٌ وإتلافٌ للمال وصاحبه وآخذه

ولا أدرى لِمَ يتركُ الرُجل جَارَهُ غرثان طاوياً وهو ينالُ من أطايبِ الدُّنيْا وخيراتِها ما تمتَدُّ اليه عينهُ وتنالهُ يَداه؟ ولو هو نَبَذَ من فَضْلِ ماينالُ إلى جاره المسكين لأحياهُ، واستوْدَعَهُ حسنَةً باقية فى قلبه ما أوْرَقَ عُودٌ، وما أهلَّ مَوْلود. إلاّ أنَّ مَطالبَ الحياةِ والمدنية خاصةً قد نخدَعَتِ الناسَ عن قلوبهم فما تجدُ رُجلاً مُموَّلاً ينبضُ قلبُهُ مَعَ قلوبِ أهلِهِ فى الضَرّاءِ والبؤسَى، يَشعُرُ بما يشعُرون

ويبكى لِمَا يبكون ويتألم مِمَّا يتألَّمون . بَلْ يتعمّده الهَوَى بالحرص على مافى يَدَيْهِ لِمَا يتوهّم من أحداثِ الزمانِ وتصاريف الأيّامِ ، ولو أنصفَ الناسَ وأرضى هواهُ لحرصَ على بعض وادّخر بعضاً منهُ فى قلوبٍ شاكرةٍ وأفئدةٍ ذاكرة ، فَلَا يُذكَرُ اسمهُ يوماً موصوفاً باللعنة فيقال فلانٌ البخيلُ وفلانٌ الحريص وفلانٌ الشحيح

وما أحسَنَ ما يستودعُ الرَّجُل الحسناتِ عِنْدَ الناس أدَّوْها أو خانوها . . . ما يُبَالى أن يقال فيه :

سأشكُرُ عمراً ماتراختْ منيّتى أيادىَ لم تُمْنَنْ وإن هِىَ جَلّتِ
فتىً غيرُ محجوب الغِنىعن صديقهِ ولا يُظهِر الشكوى إذا النعْلُ زَلَّت
رأى خَلَّتى من حيث يخفى مكانُها فكانت قَذَى عينيه حتى تجلتِ

ولا يَحسبَنّ أحدٌ أنَّا ندعو النّاسَ إلى الفوضى فى إرسال المال ولا أنَّا نؤمُّ بهم إلى سبيل من فسادِ الدنيا واطّراحِ زينة الحياة ، بل الأمر كُلُّه فى هذا الداءِ الذى استبطنَ القلوبَ فقبضَ الأيدى عند الضرورة الداعية إلى البذْلِ ، وفى هذا التجهُّم البغيض فى وجه السائل والمحروم وفى هذا الإحجام الباغى عن فعال الخير ؛ حتى اضطربَ حبل الحياة فى أيدى الناس وهبّ (الاقتصاديون) يريغون المخرج من الأزمات ودعاة السلامِ يتوجَّسون أن تحلَّ بالعالم كارثة من دوىِّ المدافع وتحليق الطائرات فتخرَّ المدنية على رءوس أهلها بالعذاب والدمار واليُتمِ والفقر والهلاك

وكيف يريغون المخرج ويدعون إلى السلام وما من رجل إلا وهو أحرص على المـالِ من حرصه على أهله وبنيه ، وكيف يريغون المخرج ويدعون إلى السلام والأغنياء لايملُّون شهواتِهم ولايفترون عن إرسال المـال فى كل سبيل إلاّ سبيلَ الفقر والمسكنة ، وكيف يريغون المخرج ويدعون إلى السلام وما من نَفسٍ تطيبُ بردّ شهوةٍ منشهواتها لِتَرُدَّ على فقيرٍ رُوحاً على وشْك قلعةٍ وارتحال

ألاً إنّ العبثَ أن يحاول أحدٌ من السوّاس والقادةِ إنقاذ العالم مما يرتطمُ فيه ، بالمؤتمرات والكلام الملفق والعلم المتعالى ، وكيف يداوونَ داءً مستبطناً قد تلبس باللحم وخالطَ الدّمَ وجرى من ابن آدم مجرى الحياة ، كيف يداوونه بدواء لا يَصلُ إلى موضع الداء فى أحدٍ من أهل هذا العالم . إنّ كلامهم ككلٍّ كلام يلقى إلىقلوب غير صاغية وآذان غير واعية ، ولا أَمل فى استنقاذ العالم مما هو فيه إلا بدواءٍ يتناوَلُ الامم أمة أمة ، والطوائف طائفة طائفة ، والرجالَ رجلاً رجلاً فيَنْفُضُها لينفى عنها الخبثَ والوَضرَ حتى تعودَ بيضاءَ نقية

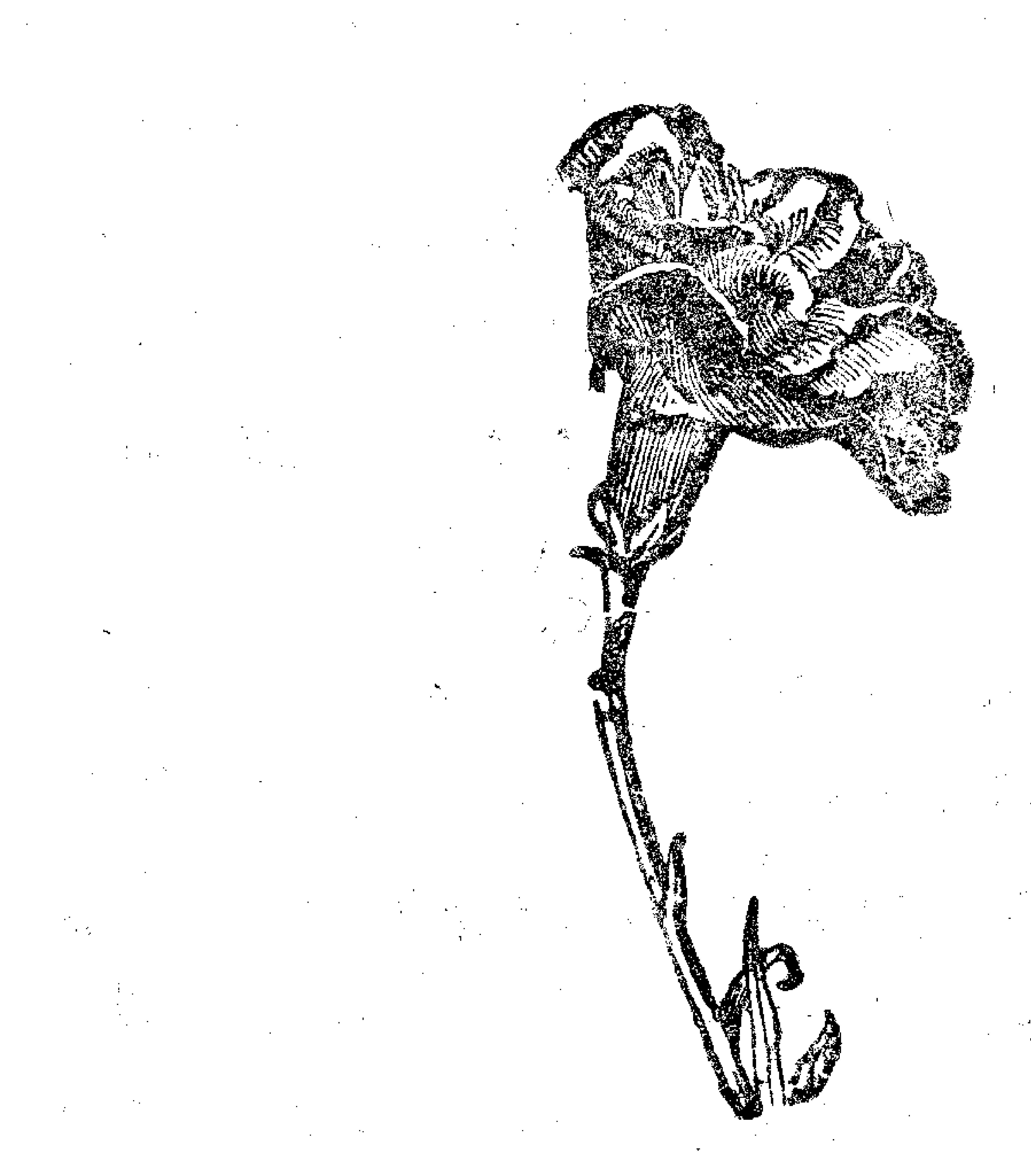
ألا وإنه لا أمل فى استصلاح ما أفسد الدهرُ إلا برجوع العالم إلى فطرةِ الاخلاق الكريمة والفكر المتوقد البسيط الذىلاتعقيد فيه ، والشعور الحىِّ بالأخوةِ بين الناس ، والسماحة الأولى التى كانت بين الناس . أما أن تطلبَ إلى رجلٍ أو طائفةٍ أو أمةٍ تقدم الشهوات والأهواء على المنافع المشتركة بين الناس أن تجود أو أن تحط لك شيئاً من الأشياء تقتضى

المنفعةُ العامة حطه وإسقاطه ، فانظر الى الجبل إن نفختَ فيه هل يطير أو يضطرب !

لا أملَ ، لا أملَ إلا أن ترَى الرّجل يلقى أخاه من الناس فى ضنك وضيق ، فيغمه أن يراه حتى يبذلَ إليه ما غلا وما عز ، حتى تنكشفَ الكرْبة وتتقشعَ ولو أصابه ما يصيب

وصدقَ رسول الله ﷺ « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنَم بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »

محمود محمد شاكر



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله تعالى على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم

كتب الشيخُ أبو هلالٍ الحسنُ بن عبد الله بن سهل الأديب إلى بعض الرؤساء :

« جعل اللهُ السيّدَ فى حيّز السلامة وَمَحَلَّةَ[1] الشكر ، كما آتاه من الفضل ... ما تدانَى دونَه شأوُ الوصف والذكْر ؛ ووفَّر الفواضلَ عليه ، كما قيَّض الفضائلَ له ؛ ولا أزالَ عن الكرم ظِلَّه ، ولا أزلَّ عن الشرف رَحْلَه[2] ؛ وأبقاه بقاءً مُذَيَّلا بالتمام مُطَرَّزًا بالإكرام ، ما رسا ثَبِير ، واختلف ابْنَا سمير[3] إنه حميدٌ مَجيدٌ فعَّالٌ لما يُريد

---

(١) فى الاصل « وجلله » ، وارتضينا « المحلة » التى هى منزل القوم لتحسن المقابلة بينها و بين قوله « حيز السلامة »

(٢) فى الأصل « رجله » ، والصواب ما أثبتناه ، وأزل فلان فلانا عن مكانه : نحاهُ عنه

(٣) ثبير : من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة . وابنا سمير : يقولون سميرُ الدهر وأبناهُ هما الليل والنهار . وهذان مثلان للدّوام والثبوت

الجود - أيّد اللهُ السيدَ - إذا كان عن يَسار وجِدَة، وإثراء وسَعَة[١]، واجبٌ لا يَسَعُ الإخلالُ به، ولا يَجْمُلُ التقصيرُ فيه والمشاهد[٢] أنّ المرء إذا أمسك مع الكثرة، وبَخِلَ مع الثَّرْوة، تناوله اللَّوْمُ من كل وجه، وانتزع إليه الذم من كل جانب؛ فهو المدفوع إلى السماحة، والمحمول على الإنالة؛ ليبعُدَ من اللَّوْم، ويُنَزَّهَ عن الذم. وليس يدُلّ بَذْلُه وإن جَزُل، وبِرُّه وإن كَمُل، على كرم أصليّ، وسَماح عُنْصُريّ، كما يدل عليه جُهْد المُقِلّ، ومُوَاساة المُخَلّ[٣] ومن لم يُعْطِ من اليسير، لم يعط من الكثير.

وقد قلت:

من لم يُواسِكَ في قليلٍ لم يُواسِكَ في كثيرِ

---

(١) في الأصل «وضعة» ولا معنى لها ههنا؛ والجِدَة: من قولهم وجد «في المالِ، بفتحتين» يجد «بكسر الجيم» استغنى غنًى لافقر بعده. و«الحمد لله الذى أوجدنى بعد فقر» أى أغنانى

(٢) في الأصل «والشاهد»

(٣) المُخَل: بضمّ الميم وفتح الخاء المحتاج الفقير من قولهم أُخِلّ به بالبناء للمجهول: أى صار ذا خلة وفقرٍ وحاجة

والحقُّ يَلْزمُ فى الكثير وليس يسقُطُ فى اليسيرِ

وقال الأوّل :

ليس جودُ الجوادِ من فَضْلِ مال إنما الجود للمُقلّ المواسى

والعرب تقول : « أعطِ أخاكَ من عقنقَلِ الضبّ » (وعقنقل الضبّ مُصْرانه[1] . أى أنك إن لم تملك إلا معًى ضبّ فلا تبخل به على أخيك ، واجعل له منه قسما ؛ وصيِّر له فيه سَهْماً) . ويقولون : « أخوكَ من آساكَ » . وقال رسول الله ﷺ « اتَّقُوا النارَ ولوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ »

وأخبرنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد ، عن الجوهرى ، عن المنقرى ، عن الأصمعى ، عن بعض العباسيين ، قال : كتب كلثومُ بنُ عمرو إلى رجل فى حاجة :

بسم الله الرحمن الرحيم .... أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك إلى رِضْوانه وجَنَّته ..... أما بعدُ ، فإنك كنتَ روضةً من رياض الكَرَم تبتهجُ النفوسُ بها وتستريح القلوب إليها ؛ وكنا

(١) المصرانَ جمع : مصير ، وجمع الجمع مَصَارين ، وهى الامعاء جمع مِعًى بكسر الميم وفتح العين

نُعفيها من النُّجْعَةِ[١] استتماما لزَهْرَتِها ، وشفقةً على نَضْرتِها ، وَادّخاراً لِثَمَرَتِها ؛ حتى مرت بنا في سفَرتنا هـذه سنةٌ كانت قطعة من سنى يوسف ـ عليه السلام ـ : اشتدّ علينا كَلَبُها[٢]. وأخْلَفَتْنا غيومُها ، وكَذَبَتْنا بُروقها ، وفقَدْنا صالحَ الإخوان فيها . فانتجعتُك ، وأنا بانتجاعى إيّاك شديدُ الشّفَقة عليك ؛ مع علمى بأنك نِعْمَ موضعُ الرّائد . واعلم أن الكريمَ إذا استحى من إعطاء القليل ولم يَحْضُرْه الكثير ، لم يُعْرَف جوده ولم تظهر نعمته.

وأنا أقول فى ذلك :

ظلُّ اليسارِ على العبّاس ممدودُ ... وقلبُه أبداً بالبُخل معقودُ

إنّ الكريمَ ليُخْفِي عنكَ عُسْرَتَه ... حتى تراه غنيًّا وهو مجهودُ

وللبخيل على أموالِهِ عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوجهٌ سودُ

إذا تكرّهتَ أن تعطي القليلَ ولم ... تَقْدِرْ على سَعة لم يظهرِ الجودُ

بُثَّ النوالَ ، ولا تَمْنَعْك قلّتُه ، ... فكلُّ ماسَدَّ فقراً فهو محمودُ[٣]

---

(١) النُّجعة : طلب الكلأ فى مساقط الغيثِ

(٢) كَلَب الشتاء : شدّته التى تحرق الزَّرْع فيكون القحط

(٣) الأبياتُ رواها الخطيبُ فى تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٤٩١

قال : فشاطره مالَهُ حتى بعث إليه بقيمة نصف خاتمه وفَرْد نعله

وما مدَحت العرب ولا تمَدَّحت بمثل الإعطاء على العُسْر والمواساة على القِلَّة . وذلك أن أكثرهم كان فى شدّة وإضاقة ، فلو جعلوا ذلك حجّة وقبضوا أيديَهُم عن صِلة الغريب وبِرّ البعيد ، لارتفعت العوارف مما بينهم (١) ، وغاض الجود فيهم

وأُنْشِد عبد الملك بن مروان قولَ عروة بن الورد :

ونسبها أبو الفرج فى أغانيه ج ٣ ص ٤٦ لبشار ، ونسبها صاحب العقد ج ١ ص ١١٧ لحماد عجرد ولعلّ الصواب أنها للعتابىّ كلثوم بن عمرو . والعباس المذكور فى البيت الأول هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، من رجالات بنى هاشم كان مقرّباً مبجّلا عند الرشيد وكان يدعوه « عمه » . ولى الجزيرة سنة ١٨٥ وتوفى فى رجب سنة ١٨٦ وكان من أجود أهل زمانه رأياً وابلغهم لساناً وهو القائل لرجل أتاه يستمنحه بقوله « أتيتُك فى حاجة صغيرة » فقال : « اطلب لها رُجلاً صغيراً »

(١) العوارف : جمع عارفة وهى صنائع الجود

أَتهزأ مِنّي أَن سَمِنْتَ ، وأَن ترى
بجسمي جَهْدَ الحقِّ ، والحقُّ جاهِدُ (١)

وأَنى امرؤٌ عَافِى إِنائِىَ شِرْكَةٌ
وأَنتَ امرؤٌ عافى إِنائك واحد (٢)

أُقَسِّم جسمي فى جسوم كثيرة
وأَحْسُو قَرَاح الماءِ والماء باردُ (٣)

فقال : ما كنت أشتهى أَن يَلِدَنى أحد من العرب إِلا هذا

وقد أحسن عتيبة بن بجير الحارثى – من بنى الحارث بن كعب – فى قوله :

(١) الحق مايجبُ من صلة الرحم وإعطاء السائل وايواء ذوى القربى وقِرَى الضيف وابن السبيل . والجَهْدُ : مايصيبُ الرجل من شحوب و مَرَضٍ حين يجهد نفسه فى أداءِ مايجب عليه

(٢) العافى : الطالبُ القاصدُ

(٣) والماء بارد : يعنى شتاءً ، وقراحُ الماءِ : مالم يخالطه ما يطيّبُ به من عسل وتمر وزبيب . والابياتُ يقولها عروة لخاله قيس بن زهير وقد تلاحيا وكان قيس أكولا بطيناً . وانظرها فى العقد ج ١ ص ١١٨ وأمالى القالى ج ٢ ص ٢٠٤ والكامل ج ١ ص ٣٦ والتبريزى ج ٤ ص ٩٤ وفى رواية الابيات فى هذه الكتب نظر

ومُسْتَنْبِحٍ باتَ الصَّدَى يستتيهُهُ
إلى كلّ صَوْتٍ فَهْوَ فى الرَّحْلِ جانِحُ (١)
فقلتُ لأهلى : مابُغَامُ مَطِيَّةٍ ؟
وسارٍ أضافَتْهُ الكلابُ النوابحُ (٢)
فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوَّحَتْ به
متونُ الفيافى والخطوبُ الطوائحُ (٣)
فقمتُ ، ولم أَجْثُمْ مكانى ، ولم تَقُمْ
مع النفسِ عِلاَّتُ النفوسِ الشَّحائحُ (٤)

(١) من عادة العرب أن ينبح طارق الليل نباح الكلاب لعل كلباً يسمعه فيجيبه . وفاعلُ ذلك هو المستنبحُ الذى يطلُبُ بنباحه كالكلب أن يسمع نباحاً ، ويستتيهه : استفعل من (تاه) . ويريدُ بذلك أن صدى صوته قد جعلهُ حيران لايَدْرِى أيسمعُ نباحاً أم يسمع صَدى فلذلك بقى جانحا فى رَحله لايغادره خشية الضلال والهلكة

(٢) البغامُ : صوت الناقة الخفىُّ حين تحنّ ، وقوله «وسار . الخ» يقولُ إن كلابه لما سمعت صوت المستنبح أجابته فكانها هى التى اضافته

(٣) الطوائح : المطوّحات المهلكات ، وهو من النوادر كقوله تعالى «أرسلنا الرياح لَوَاقح» وهى الملقحات

(٤) عِلاّت النفوسِ الشحائح : الاسباب التى تدعو الى الشّح ، والشحائح صفة للعلاتِ

وناديتُ شِبْلًا فاستجابَ ، ورُبَّما
ضَمِنَّا قِرَى عَشْرٍ لمن لا نصافحُ[1]

فقام أبو ضَيْفٍ كريمٌ ، كأنَّه
وقد جَدَّ من فَرْطِ الفُكاهَةِ مازحُ[2]

إلى جِذْمِ مالٍ قد نَهَكْنا سَوَامَهُ
وأعْرَاضُنا فيه بَوَاقٍ صحائحُ[3]

جعلناه دُونَ الذَّمِّ ، حتى كأنَّه
إذا عُدَّ مالُ المُكْثِرِين منائحُ[5]

---

(١) شبل : هو ولد الشاعر . يقول : وإنا لنضمَنُ للضيفِ لا نعرفُه ضيافة عشر ليال (٢) فقام أبو ضيف : يعنى ولده شبلا ويقول هو للضيف بمنزلة أبيه يرعاهُ ويحوطه ويحادثه ويمازحُهُ

(٣) جذمُ المال : الأصل الذى ينتج من الابل ، ونَهَكَ الشىء تنقّصهُ وقطع منه ، والسّوام والسائمة : مارعى من الابل فى الفلوات ، يمدح نفسه باهلاك ماله وإبله فى قرى الضيف ليبقى عرضهُ سليما صحيحاً لم تنهكه ألسنة الطاعنين (٤) المنيحةُ : العطية والجمع المنائح . والمال : الابل . يقول : قد جعلنا إبلنا القليلة فداءً لنا من الذمّ فاذا عدّ أصحاب المال الكثير ما لهم من البخل والشُحِّ كان قليل ما عندنا مبذولا كبذل العطية التى تكون من فضل المال

لنا حَمْدُ أرباب المئين، وما يُرَى
إلى بيتنا مالٌ مع الليل رائحُ

وأخذ هذا المعنى اسحاق بن ابراهيم المَوْصِليّ فقال:

عطائي : عطاءُ المكثرين تكرُّماً
ومالي ـ كما قد تعلمين ـ قليلُ

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولى، عن الحسن بن يحيي قال سمعت إسحاق يقول: أنشدتُ الرشيدَ شعراً فاما بلغتُ الى قولي:

وكيف أخافُ الفقرَ، أو أُحرَمُ الغنى
ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ ؟

قال: لا، كيف! لله درُّ أبياتٍ تجيء بها ما أَحكَمَ أصولَهَا وأحسنَ فُصولَهَا، وأقلَّ فُضُولَها. قلت: هذا الكلام ـ والله ـ أحسنُ من شعرى

والأبياتُ هي هذه:

وآمرةٍ بالبُخْل قلتُ لها: أقصرى،
فذلك أمْرٌ ما إليه سبيلُ

أَرَى الناسَ خُلَّانَ الجواد، ولا أرى
بخيلاً لهُ في العالَمين خليلُ

وإنى رأيتُ البُخْلَ يُزْرِى بأَهله ؛
فأكرمتُ نفسى أَنْ يُقَالَ : بخيلُ
ومن خيرِ حالاتِ الفَتَى - لو علمتِهِ -
إذا نال شيئًا أَنْ يكونَ يُنيلُ
عَطائِى عَطاءُ المكثرين تكرُّماً
ومالى - كما قد تعلمين - قليلُ
وكيف أخافُ الفقر ، أو أُحْرَمُ الغنى ،
ورأىُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ ؟

ومن عجيب ما يروى فى هذا الباب أَن الفرزدقَ دخل على يَزِيد بنِ المُهلَّب وهو يُعَذَّب فى سجن الحجَّاج فأنشده :

أَبا خالدٍ ! ضاعت خُراسانُ بَعْدَكم ،
وقال ذَوُو الحاجاتِ : أين يزيدُ ؟
فلا قَطَرَتْ بالمَرْوِ بعدكَ قَطْرَةٌ ،
ولا اُخْضَرَّ بالمَرْوَينِ بعدك عودُ(١)

(١) رواية ابن خلكان : « فلا مطر المروان بعدك مطرة » . قال والمروان « تثنية مرو إحداهما مرو الشاهجان وهى العظمى والاخرى مرو الروذ وهى الصغرى وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان » ج ١ ص ٣٥١

فما لعزيز – بعد عِزّك – بَهْجَةٌ
وما لجوادٍ بعد جُودك – جُودُ

وكان يزيد قد أعَدَّ مالاً يُصانِع به الحجّاج ليقصر من تعذيبه ، فقال لغلمانه : ادفعوا إليه المال ودَعُوا لحمي للحجّاج يقطعه كيف يريد

وأعجب من هذا أن عمر بن عبيد الله بن معمر مرّ بزنجي يأكل عند حائط وبين يديه كلب ، إذا أكل لقمةً طرح له لقمة . فقال له : أهذا الكلب كلبك ؟ قال : لا ، قال : فَلِمَ تُطْعِمُهُ مثل ما تأكل ؟ قال : إنى أستحى من ذى عينين ينظر إلىّ ، أن استبدّ بمأكولٍ دونَه . قال : أحُرٌّ أنت أم عبدٌ ؟ قال : عبد لبعض بنى عاصم ، فأتى عُمَرُ نادِيَهم فاشتراه واشترى الحائط ، ثم جاءه فقال : أَشَعَرتَ[١] أن الله قد أعتقك ؟ قال : الحمد لله وحده ، ولمن أعتقنى

وكان يزيد قد ولى خراسان بعد أبيه المهلب بن أبى صفرة الازدى ست سنين . ومن كلام يزيد قوله « ما يسرّنى أن أكفى أمور دنياى كلها ولى الدنيا بحذافيرها . فقيل له : ولم ؟ أيها الامير . فقال: أكره عادة العجز »

(١) شعرتَ : علمتَ

بعده . قال : وهذا الحائط لك ، قال : أُشهدك أنه وَقفٌ على فقراء المدينة . قال : ويحكَ ! تفعل هذا مع حاجتك ؟ قال : إنى أستحى من الله أن يجودَ لى بشىء فأبخلَ به عليه

والعرب تقول : « أتاكَ ريَّانَ بلبنِهِ » معناه يعطى لغير كرم ، ولكن لكثرة ماعنده

ونحوه ـ وإن لم يكن منه ـ قول ابراهيم بن العباس (شعر):

لا تمدحَنَّ ابنَ سَهْلٍ إن وجدتَ له
فِعلاً جميلا ، ولا تَعذِلْ اذا رزما[1]

فليس يمنع إبقاءً على نَشَبٍ ،
وليس يعطي الذى يُعْطيه مُعْتَزِما

لكنَّها خَطَراتٌ من وَساوِسِهِ ...
يُعْطِي وَيَمْنَعُ : لابُخْلاً ، ولا كَرَما

وقال أشجع السُّلَمِيّ يمدح يحيى بن جعفر البرمكى بإعطاء الكثير على الإقلال :

يَرُومُ الملوكُ مَدَى جعفرٍ ولا يَصنَعُون كما يَصنَعُ

(١) هكذا بالأصل ولعلها « إذا أزَما » أى أمسك وبخل

وكيفَ ينالونَ غاياتهِ وهمْ يجمعون ولا يَجْمَعُ
وليسَ بأوسَعهم في الغنى ولكنَّ مَعْرُوفَهُ أوسَعُ

وليس للمعطى أن يمنع القليل استحياء من قِلَّته ، لأنَّ المنع أقل منه ولا للمعطى أن يتسخَّطَه ، فرُبَّ قليل سدَّ خَلة كبيرة ، وجبَرَ فاقةً عظيمة ، وربما يبلغ به الى كثير . ولولا ذلك لم يكن للوصول اليه سبيل

وكتب ابنُ المُعْتزّ « لاتَسْتَقِلَّ شيئاً من زيادةِ الله إيَّاكَ ، فتنفِّرَ نفيسها عنك . وقليلٌ تَتَرَقَّى منه الى كثير ، خير من كثير تَنْحَطُّ به الى قليل »

وقال ابن الرومي — أنشدناه أبو أحمد ، عن ابن المسيب ، عنه :

رأيت المَطْلَ مَيْدَاناً طويلاً يَرُوضُ طباعَهُ فيه البخيلُ
فما هذا المطالُ ؟ — فدتْكَ نفسي —
وباعُكَ بالنَّدى باعٌ طويلُ
أظنك حين تقدُرُ[1] لي نوالا ، يقِلُّ لديكَ لي منه الجزيلُ

---

(١) قَدَرَ كقدَّر بالتشديد

ويُعْوِزُكَ الذى ترضَى لمثلى ، وان لم يُعْوِزِ الرأْىُ الجميلُ
وفيما بين مَطْلِكَ واختلالى يَمُوتُ بدائه الرّجلُ الهزيلُ
فلا تَقْدُرْ بقَدْرِكَ لى نَوالاً ولا قَدْرِى فتَحقِرَ ما تُنيلُ
وأَطْلِقْ ما تَهُمُّ به عَسَاهُ كَفَافِى (١) أيها الرجلُ النبيلُ
وإلاّ فالسلامُ عليكَ منّى نَبَتْ دارٌ فأَسْرَعَ بِى رحيلُ
اذا ضاقتْ على أملٍ بلادٌ فما سُدَّتْ على عَزْمٍ سبيلُ

وتقول العرب : « انَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغَضَبَ (٢) » يجعلونه مثلا لحسن موقع المعروف وان كان قليلا . وأصله أن رجلا غضب على قوم فأتاهم ليوقع بهم ، فسقوه رثيئة فسكن غضبه فكف عنهم

والرثيئة لبن حامض يصب عليه حليب

وأخبرنا أبو أحمد ، عن الجوهرى ، عن زكريا ، عن

(١) فى الاصل « كفانى » . والكفاف هو الذى لا يفضلُ عن الشىء ويكون بقدر الحاجة اليه

(٢) وكلُّ ما كسرتَ حدّته وأذهبت حرارته فقد فثأته . وكانت فى الاصل « مما تفثأ » والمثل مشهور وليس فيه « ممَّا »

الاصمعىّ قال: ذكر أعرابى رجلا فقال : ما رأيتُ رجلا أعشقَ للمعروف منه ، ولا رأيتُ الرِّزْقَ أبغَضَ أحداً بُغْضَه [١]

ومما يجرى مع هذا ماأخبرنا به أبوأحمد عن الجلودى ، عن أحمد بن الفضل ، عن عبد الوهاب ، عن ابراهيم بن عبد الأعلى ، عن الحسين بن فهم ، عن عمه قال : اشتهى صديقٌ لى فَرُّوجاً أطبُخُه له ، فأكلت الجـاريةُ اللحمَ كله إلا لحمَ الصدْر ، ونحن لا نعلم ، فكتبت إليه :

طبخنا لك فَرُّوجاً   فطاف الاهل بالقِدْرِ
ولم نقدِرْ على المنعِ   لقبح المنع فى الذِّكْرِ
فآثرناكَ بالصَدْرِ   لأن الصدّر للصدّرِ

وهذا مثل ما تقدم من قولنا : « إن إعطاء القليل خير من المنع ، لأن المنع أقل منه »

ومثال ذلك : أن رجلاً اتَّخَذَ دعوةً فجاءته الهدايا من كل

---

(١) يبغضه الرزق لأنه يفنيه بالعطاء ويهلكه بالبذل

وجه . وكان من أصدقائه رجل مُمْلِقٌ[١] فوجَّه إليه بجراب أُشْنان[٢] وجراب ملح وكتب إليه : « لو تمَّتِ الإرادةُ بحَسَبِ النيَّةِ ، ومَلَّكتنى القُدْرَة ببسْطِ الجِدَة[٣] ، لبدرت[٤] السابقين إلى برِّكَ ، ولكنتُ إمامَ المتقدمين فى إكرامِك . لكن البضاعة قَعَدَت عن الهِمَّة ، وقصرت عن مساواة أهل الثَّرْوة . وكرهتُ أن تَطْوِيَ صحيفةً ولا يكون لى فيها ذكر ؛ فوجَّهت بالمُبْتدَأ به لطيبه ويُمْنِهِ ، وبالمختوم به لطهارته ونظافته ، مصطبراً على أَلَم التقصير . فأمَّا ما يُنْوَى فالمعبِّر عنِّى به كتاب الله عزّ وجل : ﴿ لَيْسَ عَلى الضُّعفَاءِ وَلَا عَلى الْمَرْضىٰ وَلَا عَلى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرسُولِهِ ﴾

---

(١) من قولهم : أملقَ الرجل : افتقر ، وأصل الإملاق كثرة الانفاق ، ولما كان الجودُ الذى لا يمنَعُ سبباً فى الفقر سمَّوا مايكونُ عنه من الفقر باسمه

(٢) الاشنان : حمض طيب الريح تغسل به الأيدى بعد الطعام.

(٣) يعنى : لو كنت فى سعة من المال

(٤) بادرَ القومَ فبدرهم : سابقهم فسبقهم

وشبيه بهذا الخبر ما ذكره جعفر بن قدامة ، عن مَنَّة (١) البَرْمكِيَّة قالت : كانت لأم على بنت الرايس جارية مغنية يقال لها مَكْر ، وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناء ، وكان لها رُفقاء من الكتّاب ووجوه التِّجار ، وكان أبو يحيى الكنخى (٢) يعاشرها فافتصدت يوماً فأهدى لها رفقاؤها صنوفَ الهدايا ، وبعث اليها أبو يحيى بثلاث سِلال مختومة ، فإذا سَلَّة فيها ماش ومعه رقعة فيها : « الماشُ خيرٌ مِنْ لاشَ (٣) » ؛ وفى الأخرى عصافير بأجنحتها ، فلما فُتِحَتْ طارت ؛ ومعها رقعة فيها : « يا سيدتى أعتقتُ عنك هؤلاء المساكين ؛ ولو كان بَدَلها عبيداً لاعتقتهم » وفتحت الأخرى فإذا هى فارغة ، وفيها رقعة مكتوب فيها :

(١) هى فى الاصل الذى نطبع عنه « مية » بالياء وصوابها بالنون وقد ورد ذكرها فى الأغانى طبعة دار الكتب ج ٤ ص ٣٣٢ ومختار الاغانى لابن منظور طبع السلفية ج ١ ص ٧٣ وهى جارية مغنية مقتدرة كانت للبرامكة (٢) لم نعرف صحة هذا الاسم

(٣) هذا مثل . والماش : قماش البيت . ومعنى المثل ماكان فى البيت من قماش لاخطر له خيرٌ من بيت فارغ لاشىء فيه ، وخففت « لاشىء » الى « لاش » لازدواجها مع « ماش »

« يا مولاتى لو كان عندى شئ لبعثتُ اليك بشىء ، ولكن ليس عندى شىء فلم أبعث اليك بشىء » فضحكوا و بعثوا اليه بنصيب وافرٍ من كل ما أُهْدِىَ اليها فكتبت اليه أم على : « أُعطى اللهَ عَهْداً إن لم تكن هديتُك أملحَ من كل هدية وَردت علينا »

وكان أعرابى يأتى ابنَ عائشة[1] فى كل سنة فَيَصِلُه بعشرة دنانير ، فجاء ذات مرة فأخبر بأنه مُضَيَّقٌ عليه ومَدِين ، فمثل بين يديه وقال : قد أخبرونى بعُذرك وبما عليك من الدَّيْن ، وَوالله ماقصدتك إلا وأنا على غاية الاضاقة ، وأنت تُعْطَى وأنا لا أُعْطَى ، ثم قال :

وقد خُبِّرْتُ أنَّ عليكَ دَيْناً
فَزِدْ فى رَقْمِ دَيْنِكَ واقضِ دَيْنِي

فضحك ابن عائشة وقال له خذ هذه السجة[2] ـ وهى من الخشب كانت فى داره ـ فأخذها الأَعرابى وباعها بثمانية دنانير

فالصلة بالقليل ربمـا تقع موقعها بالجزيل ، ولَلرَّدُّ مصيبة حلَّت بالسائل والمسؤول

---

(١) لعلّه يعنى محمد بن عائشة المغنى (٢) لم نعرف وجهاً لهذه الكلمة

قال رجل : كنت أمشى مع سفيان بن عُيَيْنَة إذ أتاه سائل فسأله ، فلم يكن معه مايعطيه ، فبكى ، فقلت : ياأبا محمد ! ماالذى أبكاك ؟ قال : أى مصيبة أعظم من أن يأمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه ... ! ونحوه قول الشاعر :

أليس كبيراً أن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ، وليس علينا فى الحقوق مُعَوَّلُ

وقال آخر :

يرى المرءُ ـ أحياناً ، إذا قلَّ ماله ـ
مِنَ الخير أبواباً فلا يَستَطِيعُها
وما إنْ به بُخْلٌ ، ولكنَّ مالَهُ
يقصِّر عنها ، والغِنيُّ يُضيعُها

* * *

وما ساد أحد قطٌّ ، ولاسار ذكره بشىء كايثاره على نفسه . وقد مدَحَ الله تعالى الانصارَ فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

وما ذُكِرَ حاتمٌ وكعبُ بن مَامَة الإيادىّ إلا بإيثارِهما على أنفسهما

وأخبرنا أبو أحمد عن أبى بكر ، عن أبى حاتم ، عن أبى عبيدة قال : أجوادُ العرب ثلاثة[١] :— حاتمُ بنُ عبد الله الطائى ، وكعبُ بن مَامَة الإِيادِي ، وكلاهما آثر على نفسه وضُرِب بهما المثل ، والجواد هَرِمُ بنُ سِنانٍ المُرِّى الذى يقول فيه زهير :

إنَّ البخيلَ مَلُومٌ حيثُ كانَ ، ولـ
ـكنَّ الجوادَ ـ على عِلاَّتِهِ ـ هَرِمُ
هو الجوادُ الذى يعطيك نائِلَهُ
عفواً ، ويُظْلَمُ أحياناً فَيَظَّلِمُ

وكان مما آثر به حاتمٌ على نفسه ... أنه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجةً ، فلما كان بأرض عَنَزَة[٢] ناداه أسيرٌ لهم : ياأباسَفَّانة[٣] ! أكلنى الإِسارُ والقَمْلُ .... قال : ويلك ، والله ماأنا ببلاد قومى ، وقد نوَّهْتَ باسمى ، ومالك مَتْرَكٌ ، فساوم

(١) الأجواد : جمع جواد . وهو يعنى بهم أجواد الجاهلية أما فى الاسلام فهم كثير

(٢) قبيلة من العرب أبوها « عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار »

(٣) سفّانة بنت حاتم يكنّى بها

العَنْبَرِيّين فاشتراه وخلاّه، وأقامَ فى قِدِّه (١) حتى أَتى بفدائه.
فقال الفرزدق حين صافَنَ عاصِماً العَنْبَرِىَ (٢) :

فلما تَصافَنّا الإِداوَةَ أَجْهَشَتْ
إلىَّ غُضُونُ العَنْبَرِىّ الجُراضِمِ (٣)

---

(١) أقام حاتم فى الاسر مكانه

(٢) من عادة العرب اذا قلّ عندهم الماء فى سفر يقتسمون الماء على حصاة تُلْقى فى اناءٍ فيسقى الرجل قدر مايغمُرها فذلك التّصافن

(٣) الاداوَة إناء صغير يتخذ من جِلْدٍ يحمل فيه الماء. وأجهش الرجل تهيأ للبكاء. والغضون: مكاسر الجلد فى الجبين. والجُراضم: الأكول. كان الفرزدق فى رفقة وكان دليلهم عاصم العنبرى فضَلَّ بهم فى بيداء لاماء بها، فلما ظمئوا وأرادوا اقتسامَ الماء جشع العنبرىُّ الأكول الضخْم فأناله الفرزدق الماء لا إبقاءً عليه بل إبقاءً على القوم الذين فى رفقته. وبعد هذا البيت:

فجاء بجلمود له مثل رأسه   ليسقى عليه الماء بين الصرائم

وبين هذا وبين البيت الذى ذكره العسكرىّ ثمانية أبيات. ولذلك نجد المعنى غير واضح. وقبل البيت الثانى:

فآثرتُه ـ لمّا رأيت الذى به ـ   على القوم أخشى لاحقات الملاوم
حفاظاً، ولوأنّ الاداوه تشترى   غلت فوق أثمان عظام ِ المغارم
على ساعة لو أن فى القوم حاتما   . . . . . الخ

عَلَى ساعَةٍ .. لَوْأَنَّ فى القومِ حاتِمًا
ـ على جُودِهِ ـ ضَنَّتْ بِهِ نَفْسُ حاتِمِ

وصحب كعبٌ رجلا من النَّمِرِ بن قاسط فى شهر ناجِرٍ[1] فتصافَنَا ماءها ، فجعل النَّمَرِىُّ يشرب نصيبَه ؛ فإذا أصاب كعباً نصيبُه قال : اسقِ أخاكَ النَّمَرِىّ ، فيُؤْثِره على نفسه ويسقيه ، حتى أضرَّ به العطش ، وأسرع السيرَ حتى رُفِعَ له أعلامُ الماء وقد غَلَبَه العطش فقيل له : رِدْ ، كعب ! فلم يقدر على الورود فمات . فقال رجل من إياد يبكيه[2] :

ما كان من سُوقَةٍ أَسْقَى على ظَمَإٍ
خمراً بماءٍ إذا ناجُودُها بَرَدا[3]

وِ القصيدة عدّة أبياتها (٥٣) فى هجاء هذا الدليل العنبرىّ المُضِلّ ، وهى فى ديوانه برقم ٤٠٥

(١) ناجِر أشدُّ فصل الصيف حرًّا

(٢) نقل ابن برّى عن السِيرافى أن البيتين لمامة الايادى أبى كعب

(٣) السُّوقَة : مَنْ دونَ الملك من الرعيّة . والناجودُ : إناء الخمر أو راووقها . وقوله : « إذا ناجودُها بَرَدا » يعنى اذا عزَّتِ الخمر وغلت أيام الشتاءِ

مِن ابن مَامَةَ كعبٍ ثم عَيَّ به
زَوُّ المَنيةِ إلاَّ حِرَّةً وَقَدَى(١)

ومما جاء فى مدح القليل ماأنشدَناه أبو أحمد، عن أبى بكر:

وإنَّ قليلا يسترُ الوجهَ أن يُرَى
إلى الناس مَبْذُولا، لغيرُ قليلِ

وقال زُهير:

عَلَى مُكْثِرِيهم حَقُّ من يَعْتَرِيهُم،
وعنـد المُقِلين السماحةُ والبَذْلُ

فلم يُخْلِ فقيراً منهم ولا غنيًّا من بذْل

وقريب من هذا المعنى ما أنشدناه أبو القاسم، عن العقدى عن أبى جعفر، عن ابن الأعرابىّ:

ولا عِزُّنا يغدُو على ظُلْم غيرِنا، وليس علينا للظُّلامةِ مَذْهبُ
نُريحُ تِلادَ الحِلْم وسْط بيوتِنا إذا حِلْمُ أقوامٍ من الناس يَعْزُبُ

(١) عَيَّ به: رأينا أن أصلها عَيَّاه بمعنى أعياه وعدّاها بالباء لأنها بمعنى بَرَّح بِهِ. والزوّ: القدَرُ أو أحداثُ الموت. والحِرَّةُ: حرارة العطش والتهابه. ووَقَدَى بفتحات: تَوَقُّدٌ. وعندنا أن موقع إلا هنا زيادة تفيد المبالغة فى شدّة العطش ولم يرد بها الاستثناء

ولا ألطِمُ ابن العمّ إن كان إخوَتى
شُهُوداً ، وإخوانُ ابنِ عمّى غُيَّبُ ...
على سَفَرٍ ، أو صادَفَتهُمْ مَنيَّةٌ
فأَوْحَدَ منهم ظَهْرُهُ حينَ يَغضَبُ [١]

على كل حال قد قلتنى عَشيرتى :
عَلى الفقْرِ منّى ، والغِنى حين أُتْرِبُ [٢]
غَنِيتُ فلم أَبْخَل على مُقترِبهم
بشيء ، ولم أَكْدُدْهُمُ حين أُنكَبُ
يعيشُ الفتى بالفقْر يوماً ، وبالغِنى ،
وكلٌّ ـ كأنْ لمْ يَلقَهُ ـ حين يذهبُ

وهذا مأخوذ من قول أبى كبير :

فإذا وذلكَ ليسَ إلاَّ حينه وإذا مضى شيءٌ كأنْ لم يفعَلِ

وأخذه آخر [٣] فقال :

(١) أوْحدَ منهم ظَهْرُهُ ، أى بقى منفرداً لاظهير له . يقال فى الدعاء « أوحد الله جانبه » أى أبقاه وحيداً لأعدائه

(٢) أتْرَبَ الرجلُ كثر ماله ، وترِبَ قلَّ ماله

(٣) هو جابر بن ثعلب الطائى ، وأبياته هذه فى حماسة أبى تمام

كأن الفَتَى لَمْ يَعْرَ يَوْماً إذا اكتسَى ،
ولم يَكُ صُعْلُوكا إذا ما تَمَوَّلا
ولمْ يَكُ فى بُؤسٍ إذا باتَ ليلةً
يُناغِى غزالاً فاتِرَ الطَّرْفِ أكْحلاَ (١)

وإذا رضى منك بالقليل فلم يوجد عندك ، كان الذم بك أليق ، واللؤم بك أعلَق ، وطريق عُذْرك أضيق

وقال آخر :

وليسَ يَتِمُّ الحِلْمُ للمرءِ راضياً إذا كان عند السُّخْطِ لا يَتَحَلَّمُ
كما لا يَتِمُّ الجودُ للمرءِ مُوسِراً إذا كان عند العُسْرِ لا يَتَكَرَّمُ

وسأل ابن الرومىّ رجلا قَفِيزَيْن من حنطة فمنعه ، فقال :

سألتُ قَفِيزَينِ من حِنْطـةٍ فجدتَ بكُرٍّ من المَنْعِ وافِ (٢)

---

(١) فتر الطرف سكن فى لين . والمناغاة فى الاصل محادثة الصبىّ بما يهواه ويسرّه

(٢) القفيز : مكيال تواضع الناس عليه قديماً . والكُرُّ : ستون قفيزاً ، قال ابن سيده : يكون بالكيل المصرى أربعين إردبّا

كأنّى سألتك حبَّ القلو
ب : ذاكَ الذى من وَراءِ الشَّغافِ (١)

وقال أوس بن حجر :

مَنعتَ قليلاً نفعُه ، وحرمتَنى يسيراً فهبْهَا بيْعةً لا تقالُها

وأنشدنا أبو أحمد وغيره لبعضهم ، يمدح رجلا بقلّة المال وكثرة النَّيْلِ :

له نارٌ تُشَبُّ بكلّ أرض إذا النّيران جُلِّلتِ القِناعا (٢)
وما إنْ كان أكثرَهمْ سواماً ، ولكن كان أرْحَبَهُمْ ذِراعا

وقال أشجع :

وليس بأوسَعِهِمْ فى الغنى ولكنَّ مَعْرُوفَه أوْسَعُ

وقال آخر (٣) :

وما الجود عن فقرِ الرِّجالِ ولا الغنى ،
ولكنَّه خِيمُ الرِّجال وخِيرُها (٤)

---

(١) الشَّغاف : غشاء القلب
(٢) جُلّلت القناعا : سُتِرَ ضوءها خوف أن يراها طارق فيحضرها
(٣) هو الحسين بن مطير الاسدى
(٤) الابيات على هذا الترتيب غير متشاكلة الاصول ، وصواب

فنفسكَ أكرِمْ عن أمور كثيرةٍ ،

فما لَكَ نفسٌ بعدَها تستعيرُها

وقد تخدَعُ الدُّنيا ، فيُمسي غنيُّها

فقيراً ، ويَغنَى بعدَ بُؤس فقيرُها

وكَمْ طامعٍ في حاجةٍ لاينالُها ، وكم آيس منها أتاهُ بشيرُها

اعلم أدام الله عزَّك أن اليسير تعطيه عفواً ، وتبذُلُه صفواً من غير مَطْلٍ يُغيضُ ماءَه ، ويكدِّرُ هواءَه ، يقوم مَقامَ الكثير وينُوبُ مَنابَ الجزيل ؛ لأن المَنْعَ خير من المَطْلِ ، ويسيرَ النَّيْلِ خير من المَنْع - على ماقدمناه قبل - وقد قال ابن الرومىّ :

من الحَيْفِ تطفيفُ النَّوال و مَطْلُه ،

فعجِّلْ خسيساً ، أو فأَجِّل موفَّراً

انشادها أن تضع البيت الثالث بعد البيت الاول ثم تتبعه بقوله :

وكائن ترى من حال دنيا تغيَّرت وحالٍ صفا بعد أكدارٍ غديرها

ومن طامع فى حاجة ... الخ

ومن يتّبع مايعجب النفسَ لم يزلْ مطيعاً لها فى فعل شىء يضيرها

فنفسك أكرمْ ... الخ

والخِيم : الشيمة والخلق . والخِير : الاصل

فكن نَخْلَةً تَلْوِى وتُسْنِي عطاءها ؛

وإلا فكن عَفْصاً أَقَلَّ وَأَيْسَرَا (١)

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولى ، عن القاسم بن اسماعيل عن العطوى ، عن يحي بن أكثم قال : دخلت على المأمون وبين يديه طعام فى طبق فدعانى إليه ـ وكان لحماً بارداً قليلا ـ فخاف أن أستقلّه فقال من الشعر (له) :

اعرِضْ طعامَك وابذُلْه لمن دَخَلاَ ؛

واحلِفْ على من أَبَى . واشكُرْ لمن أَكلا

ولا تكن سَابرِىّ العَرْضِ مُحْتَشِما

من القليل ، فلستَ الدهر مُحْتَفِلا (٢)

وفي الحديث « خير الصدقة جُهْدُ المُقِلّ الى فَقيرٍ فى السِّرِّ »

---

(١) يقول : كن كالنخلة تماطِلُ فى حملِها ثم تُكثِرُ من فاكهتها ، فان لم تكن فكن كالعفْصِ يُعطيك على يُسْرٍ غير مماطل شيئاً قليلا

(٢) فى المثل « عرض سابرى » يقوله من يعرضُ عليه الشيء عرْضاً لايبالغُ فيه لأن السَّابِرىّ ـ وهو من الثياب أرقُّها ـ من أجود الثياب يرْغب فيه بأدنى عرضٍ . قوله « فلستَ الدهر محتفلا » يقول فانك لست طول أيامك غنياً حافل المالِ

وقد علمتَ - أدام الله عزَّك - أن الوصف بكرَم النفس، وسَعَة الصدر، وسماحة الكفّ؛ من أنفَسِ ما يُراد، وأجلّ ما يُرْتاد. ومَن رُزِقَهُ بإنالة قليل لايجْحِفُ به. فقد أوتى الحظَّ الجسيم، وَسِيقَ إليه المَتْجَرُ الرَّبيح. والشكر القليل ثمنُ النوال الجزيل. فإذا رُزِقْتَ كثيرَ الشُّكر على قليلِ النَّيْلِ، فاعلم بأنك مسعود

وأنشد أبو تمام فى قريب من هذا المعنى:

ومُسْتَنْبِحٍ قال الصَّدَى مِثْلَ قَوْلِهِ،
حَضَأْتُ له ناراً لَها حَطَبٌ جَزْلُ [1]

(حَضَأت النار حَضَأْتُ أى ألهبتها فالتهبت. وقال ابن دريد حَضَوْتُ بغير همز بمعنى حضأت، وقال غيره ويقال حَضِيَ الرجل يَحْضَى [2] اذا حرص وشره)

(١) المستنبح مضى معناه فى ص ١٩ يعنى به الضعيف حين يجيبُه صداه على عوائه كعواء الكلب

(٢) لم أجد من ذكر هذا الحرف من أصحاب الأمَّهات إلا ابن سيده فى المخصص فى باب الحرص والشره ج ٣ ص ٦٨ قال: هو يلأف ويلبزُ ويخضِمُ ويحضى ويوجزُ ويتلهَّزُ كلها فى الشره» ولها وجه وهو التسهيل وليست من مادة غير «حضأ» وهى استعارة، كقولهم تَسَمَّرَ جرمه

وقمتُ إليه مُسْرِعاً فغَنِمتهُ ، مَخافَةَ قَوْمٍ أن يفُوزُوا به قبلُ
فأوسعني حَمْداً ، وأوسعته قِرًى وأَرْخِصْ بحمدٍ كان كاسِبَهُ الأَكلُ

وأخبرنا أبو أحمد ، عن ابن دريد ، عن أبي معاذ خلف بن أحمد المؤدِّب ، عن المازني ، عن أبي عبيدة قال : كان بالبصرة رجل من موالي بني سعد يقال له نُبَيِّتٌ ، وكان صاحب صلاة بالليل ، وكان الأعراب ينزلون عليه : فنزل عليه قوم ولم يُعَشِّهِم وقام يُصَلِّي إلى الصباح ، فقال رجل منهم :

لَخُبْزُ نُبَيِّتٍ وعليه لَحْمٌ أحبُّ إليّ من صوت القُرَانِ
تَبِيتُ تُدَهْدِهُ القرآن حَوْلي كأنَّك عند رأسِيَ عقرُبانُ (١)

فذكر أن للطَّعام مكاناً على قِلَّته ، ونزارةِ قيمته . وليس السخاءُ بالكثير بأحمدَ مِنَ السَّخاء بالقليل إذا وافَقَ الحاجة . وقد قيل : « خيرُ السخاء ما وافق الحاجة » ، ولم يشترط فيه الكثرة والقلة ، وقيل :

وأُغْبَطُ من ليلى بمالا أَنالُه ، وقِلَّةُ ماقرَّتْ به العينُ صالحُ

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران ، عن عبد الرحمن بن جعفر

(١) العقربان : ذكر العقرب . وفي الشعر إقواء . وهو كلامُ أعرابيّ جافٍ جائع

عن الغلابى ، عن عيسى بن يزيد ، عن موسى بن عقبة ، عن مِقْسَم مولى ابن عباس . (ح) وعن الغلابى عن مُطرّف ، عن ابن دارة . (ح) وعن الغلابىّ عن عبد الله بن الضحاك ، عن هشام بن معاوية والهيثم بن عدى ؛ عن الحسن قالوا : وفد عبيد الله بن العباس على معاوية ؛ فلما كان ببعض الطريق أصابتْهُ السَّماءُ فأَمَّ أبياتاً من الشَّعَر ، واذا أعرابىٌّ قد قام اليه فلما رأى هيئته وبهاءه — وكان من أحسنِ الناس شارةً وأحسنِهم هيْئَةً — قال الاعرابى لامرأته : إن كان هذا من قُرَيْشٍ فهو من بنى هاشم ؛ وان كان من اليَمَن فهو من بنى آكل المُرارِ[1] . فأنزله ، وذلك فى الليل ، فقام الأعرابى الى عُنَيْزَةٍ له يذبحها فجاذبته امرأته وقالت : أكل الدهرُ مالَكَ وشَرِبه ، ولم يَبْقَ لك ولِبَنَاتِكَ إلا هذه العُنَيْزَة تَضَعُ دِرَّةً كمُخَّةِ عُرْقُوب[2] ، ثم

(١) آكل المرار هو حُجر جدّ امرىء القيس ، و بنو آكل المرار سادة اليمن وملوكها

(٢) الدِّرة فى أصلها اللبنُ الكثير وتستعمل للقليل تهكماً . والمخة ما يكون فى العظم من النقى ، وعُرقُوبُ الدابة من رجلها بمنزلة الركبة من يدها . والعرقوبُ أضنُّ العظامِ بالنّقي (المُخ)

تريد أن تَفْجَعَهُنَّ بها ؟! قال : والله لأَذْبَحَنَّها . فقالت : والله ، إذاً لا يتركك بناتُكَ ، قال : والله ؛ لَلْمَوْتُ خير من اللؤم ...
[ثم] قال ؛ وعبيد الله يسمع :

قرينتي (١) ، لاتوقظي بُنَيَّهْ ؛ إن توقظيها تنتحب عَلَيَّهْ (٢)
وتَنْزِعِ الشَّفْرَةَ من يَدَيَّهْ أَبْغِضْ بهذا وبها إِلَيَّهْ

ثم ذبح الشاةَ وأضرم النارَ ، وجعل يقطع من أطايبها ويلقيه على النار ، ثم قرَّبه الى عُبَيْدِ الله بن العباس ومَن معه ، فجعل عُبَيْدُ الله يأكل ويحدّثه فى خلال ذلك بما يُلْهِيه ويضحكه ، حتى اذا أصبح وانجلت السَّحابة وهمَّ بالرحيل قال لِمِقْسَمْ : كم معك من نفقتك ؟ قال : خمسمائة دينار ، قال : أَلقها الى الشيخ ، قال : ماتُريدُ إِلاَّ أن تسأل الناسَ فى طريقك ! إِنّ هذا يرضيه عُشْرُ ماسَمَّيْتَ . وتأتى معاويةَ ولا تدرى عَلاَمَ تُوافقُه (٣) ؟ قال: ويحك ، إِنا نزلنا على هذا وما يملكُ الا هذه الشاة ، فخرج لنا من دُنْيَاهُ كُلِّها ، ونحن نُعْطيه بعضَ ما نَمْلِكُه فهو أجودُ مِنَّا ، قال : فألقاها اليه وارتحل ، فأتى معاويةَ فقضى حوائجه ،

(١) فى الاصل « قرينة »
(٢) تنتحب عليه : تشتدُّ فى مقاومته ومنافرته (٣) أى تجده

فلما انصرف قال لمقسم : أنظر ماحالُ صاحبنا . فعدل اليه فاذا إبلٌ وشاءٌ وحالٌ حسنة ، فلما بصُرَ الأعرابى بعبيد الله أكبّ على أطرافه يُقبّلها ثم قال : بأبى أنت وأمى ، قد مدحتك ولا أدرى والله من أىّ خلق الله أنت . وأنشده :

تَوَسَّمْتُهُ لما رأيتُ مَهَابة
عليه ، وقلتُ المرءُ من آلِ هاشِمِ
وإلاّ ، فمن آلِ المُرَارِ فإنّهم
ملوكٌ ، وأبناءُ الملوكِ الأكارِمِ

(قال الشيخ أبو هلال : ثم ذكر أبياتاً رديئة اللفظ والوصف أظنها من عمل ابن دأب ، فانه كان عمُولاً لأمثالها فيما يرويه من الاحاديث) فقال عبيد الله : أصبت ، أنا من ولد هاشم ، وقد وَلَدَنى آكلُ المُرَار [1] . فبلغ معاوية ذلك فقال : لله دَرُّ عبيد الله من أى بَيْضة خَرَج ، وفى أى عُشٍّ دَرَج ، هذه والله من فعال عُبيد الله مُعَلِّم الجود ، وهو والله كما قال الحطيئة :

أولئك قومٌ ، ان بَنَوْا أحسنُوا البِنَا
وإن عاهدوا أَوْفَوا ، وإن عَقَدُوا شَدُّوا

(١) لأن أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية

وإن كانتِ النعماءُ فيهم جَزَوْا بها ،
وان أَنْعَمُوا لاكَدَّرُوها ولا كَدُّوا

وقال بعض الحكماء : « ذَلّلْ أخلاقكَ للمَحاسن ، وقدْها للمحامد ، وعَلّمها المكارم ، وعوّدها الجميلَ والايثارَ على النفس فيما تَحْمَدُ غِبّه[1] ولا تُداقَّ الناس وزنًا بوزن[2] وتَكَرَّم بالغنى عن الاستقصاء ، وعظّم قَدْرَك بالتغافل عن دنىء الامور ، وأمسك رَمَقَ الضعيف بالمعُونَةِ ، وَصلْ من رَغبَ إليك بجاهك ـ إن عجزت عما رَجاهُ عندَكَ ، ولا تكن بَحّاثًا عمن غاب عنك فيكثر عناؤكَ ، وتحَفَّظ من الكذب فإنه أسقَطُ الأخلاق للأقدار ، وهو نوع من الفُحْش ، وضربٌ من الدَّناءة ، وأصله من استعداد المتمنى[3] ، وهو أضغاث فكر الحمق ، فإذا استحكم فى الضمير بتسويل النفس الضعيفة جاشت ، فَغَلى على اللسان ، كما يفورُ الماء

(١) الغب : العاقبة

(٢) المداقة : التشدد فى النقص والزيادة كفعل التجار

(٣) هكذا الأصل ولعلّ المرَاد أنّ أصل الكذب هو تمنى الرُجل أمرا يحملُه على الكذب وتسوّلُ له النّفْسُ هذه الامانى حتّى تستحكم فيها . والاشبه أن تكون « من استعداء المتمنّى »

فى الاناء إذا احتدمت تحته النار . واعلم أنه أغلب شىء على صاحبه ، وأشده تمكناً منه ، وأحرى أن لا يُنزع منه بحيلة ، وذلك لضروراته وطول صحبة العادة له

وقيل لبعض الحكماء : ماالشح ؟ قال : أن ترى إعطاء القليل سرفا ، والانفاق فى الحق تلفا

ومما رغّب فى الاحسان قول بعض الحكماء لأصحابه : اعلموا أن كل يوم يمرُّ بكم يحمل ما يُثبت فيه من حسن وقبيح ، ثم يمضى فلا يعود ؛ فإن قدرتم أن تخطُّوا فى كل يوم مكرمة ، وتُثبتوا فيه حسنة تبتهجوا بذكره ولو بعد حين ، فلا تؤخروا ذلك فتغبنوا حظّكم من يومكم ، فإن الأيَّام صحائف ، فخلّدوا فيها الجميل ؛ وقد رأيتم حفظها لما استودعت من المحامد وأفعال الكرام فى قديم الدهر وأوّل الزمان ، ثم لم يدرس (١) ذلك مع ذهاب القرون ، ولا ينسى على حال ؛ وماحوت من العار لايمحوه الآخر عن الاوّل

وقال بعض الحكماء : بإجالة الفكر يُستدرك الرأى المصيب ، وبحسن التأنّى تسهل المطالب ، وبلين كنف المعاشرة

(١) لم يذهب ولم يبل

تَدُوم المَوَدَّة ، وبخَفْضِ الجانب تأنَسُ النفوس ؛ وبسَعَةِ خُلُقِ المَرْءِ يَطيبُ عيشُه ، وبكثرة الصَّمْت تكون الهَيْبَة ، وبعدْل المنطق تجب الجلالة ؛ وبالنَّصَفة يَكْثُر الواصِلون ، وبالإِفضال تَعْظُم الأقدار ، وبالتَّواضع تَتِمُّ النِّعْمَة ، وبصالح الاخلاق تزكو الاعمال ، وباحتمال المُؤَن يَجِبُ السُّؤْدُد ، وبالسيرة العادلة يُقْهَرُ المناوىء ، وبالحِلْمِ عن السفيه تكثر أنصارُك عليه ، وبالرِّفْقِ والتَّودُّد تستفيد محبَّة القلوب وبحسن اللِّقاء يألَفُك الثناء الجميل ، وبإِيثارِك على نفسك تَسْتَحِقُّ اسمَ الكرم ، وبالصِّدق والوفاء تكون للناس رِضًى ؛ وبنفي العُجْب تأمَنُ مَقْتَ أُولى الألباب ، وبترك ما لا يَعْنِيكَ من الأمر يَتِمُّ لك الفَضْل ، ومَن رضى للناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم

ومما يجري مع ذلك — وان لم يكن منه — قول بعض الحكماء : ماأَخْلَقَ الأعراضَ ، ولا أَذَلَّ الاقدارَ مثلُ نَيْلِ مُمْتَنٍّ به ، واستطالة مُنْعِمٍ بفضله . ولَفَقْدُ السَّعة ـ مع تزهُّد النفس ـ أَغْنى من امتهان عِرْضِك لمن يستكثرُ قليلَ نَيْلِهِ لك ، ويستقلُّ ما بَذَلْتَ له من شكرك

ونحوه : كافِىء المعروف وان جَلّ ، واشكرْه وان قلّ ،

وإذا أصابتْكَ شدَّة فاذكرْ أَنَّ ما بَعْدَها أشدُّ منها وَأَفْظَعُ ، فإن ذلك يُهَوِّن عليك شدّة بلائها ؛ ويتحَمَّلُ عنك ثِقَلَ أعبائها

قال الشيخ أبو هلال : وقد علمنا أن المرء وإن مَلَكَ الدنيا بحَذافيرها لم ينتفع منها إلا بقدر الحاجة ، ولا وجه لِتَسَخُّطِه القليلَ وهو حَظُّه ؛ وتَطَلُّعه إلى الكثير وهو فَضْلٌ ...

فمن جيّد ما روى فى فَضْلِ الإعطاء على العُسْر : أن رجلا دخل على المنصور فقرَّبه ثم أمر بإعطائه عشرة آلاف درهم ، فحُمِلَتْ معه . وخطا خُطُواتٍ مُنْصَرِفاً فردَّه وأمر له بمثلها ، فقبَضَها ، وخطا خُطُوات مُوَلِّياً فردّه وأمر له بمثل هذا أيضاً ، فلما انصرف قال : لقد أُرانى وأنا هاربٌ من بنى أمية ، وقد نادى مناديهم ببراءة الذِّمة ممن وُجِدَ مِنَّا فى بلادهم ، فأردتُ الخروجَ من الكوفة فى الهاجِرة[1] فدُفِعْتُ إلى هذا الرجل وهو يَحْذو النعالَ فقال لى : لعلك من هذه الفرقة المهجورة ؟ قلت : نعم ، فدفع إلىّ شِقَّ درهم كان معه ؛ ولما ولَّيتُ ردّنى وأعطانى أرْغِفَةً كان أعدَّها لعشائه ، ولما انصرفتُ ردّنى ودفع إلىَّ

(١) أشدّ اليوم حراً وقَيظاً

زَوْجىْ نعالٍ كانَتا له وكنتُ حافيا ، فوقَعَ منّى مَوقِعاً محموداً فانصرفتُ ولقيته اليوم ففعلتُ ما فعلتُ ، على علم منّى أنه كان فى قليلِ ما أَعطانيه أجودُ منى فى كثير ما أَعْطَيْتُهُ

ومما يجرى مع ذلك ـ وإن لم يكن منه ـ قول بعض الحكماء: المُقِلُّ السَّخِيّ غَنِيٌّ بجميل الذّكر ، والبخيل المُكْثِر فقير بسوء الذكر ، وخمولُ الذكر أحمدُ من الذكر الذميم

ومما يجرى مع ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد ، عن أبى بكر ، عن أبى حاتم قال : حضرتُ بعض وُلاة البَصرة ـ ولم يُسَمِّه ـ وكان جبَّاراً فسمعت رجلا يقول فى مجلسه : الأتباع يُؤْنِسهُم البِشْرُ ، ويوحِشهم الازوِرار ، ويَلُمُّهم لين الجانب ، ويُفَرِّقهم عنف المعاشرة . وازدحام الآمال لَديك ، نعمة من الله عليك ، فقابلِ النِّعمة بحُسْنِ المجاورة تَستَدِمْ وارِدَها ، وتَستَدْعِ نافِرَها قال : فما زلت أعرف موقع هذا الكلام من ذلك الوالى حتى افترقنا

وإذا كان البِشْرُ ـ أصلحك الله ـ يَصلح لِتَأَلُّف القلوب ، فالنَّيل وإن كان قليلا أصلح لها ، فليس ينبغي أن يَستَحِيَ أحَدٌ

من بَذْله ، ولا يستصغرَ أحدٌ أخْذَهُ، فإنَّ قليل النّفع كثيرٌ إذا قِيس بفقْدِه . واذا عرَفت المنفعةَ فى تَفَاريق العَصا[١] مع قِلّتها ونزارة قيمتها ، علمت أن نَزْر المنافع جزْلٌ فى بعض المواضع .

وقد علمت أن حاتماً وكعْبا وهرِما لم يُجْعلوا أمثالا فى الجود لعِظَم عطياَّتهم فى القَدْر ، لأن الواحدَ منهم إنما كان يَقْرى ضَيْفا، أو يَهَبُ بعيراً ، أو عَدَداً من الشاءِ قليلا . . . . ، ولكن ذَهَبَ صيتهم فى السماح ، وبَعُد ذكرُهم فى الجود ، لانهم كانوا يُعْطون وهم محتاجون ، ويُنيلون وهم مُخْتَلُّون[٢] . وقد عرفت أن كعبا انما رُزقَ هذا الاسمَ الكبيرَ فى الجود بما آثر صاحبَه، ورُزِقَه حاتم بإِنْهابه ماله[٣] ، ولم يكن بالعَكَرِ الدَّثْرِ[٤] ولكن

(١) تفاريق العصا : ما تكسّر منها و تفرّق ، وذلك فيما حكى ابن الاعرابى أن العصا تُكسَر فيتخذ منها ساجور (وهى الخشبةُ توضع في عنق الكلب) ، فاذا كسر الساجور اتخذت منه الأوتاد ، فاذا كسر الوتد اتخذت منه التوادى تصرُّ بها اخلاف الناقة (٢) المُختَلّ : الفقير المعدم المحتاج . من الخلّة بالفتح وهى الحاجةوالفقر (٣) الانهاب أن تعرض الشيء و تبيحه لمن شاء أن يأخذَ منه ، وهذا الشيءْ نَهب

(٤) العكر : مافوق خمسمائة من الابل ، ويعنى بها هنا الابل من غير عدّه ، والدَّثر : الكثير

قَصْدا أو قليلاً نَزْراً ، وأنَّ هَرِما انما أَعطى زُهَيْراً رَواحلَ وثِيابا تَقِلُّ قيمتها ولا يعظم مقـدارها ، وكانَ عطاء الرَّشيدِ والبرامكةِ والمأمونِ والأمينِ فى اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاهُ أولئك فى جميع أيَّامهم ، ولم يُضْرَب بواحد من هؤلاء المثل كما ضُرِب بأولئك . فهذا يدُلُّ على أنَّ الناس انما استحسنوا منهم بَذْلَهم مع ضيقِ أحوالهم ، وقِلّة ذاتِ أيديهم ؛ فجعلوهم أمثالاً مضروبة لكل من استغربوا فعله ، واستبْدَعوا صنيعه

وفى أخبار حاتم : أنَّ جاريةً جاءته فى ليلة شاتيَةٍ فقالت : جئتك ـ يا أبا سَفّانة ـ من عند صِبْيةٍ لهم ضُغَاء[1] من الجوع . فقال : واللّٰه لأُشْبِعَنَّهم ، فتعجّبت امرأته من قولِه لعامها أنه لا شيء عنده ، فقام الى فَرَسِه فذبحها وأوْقَدَ ، فجعل يكبِّبُ لها اللحمَ[2] حتى اكتَفَتْ واكتفى أولادُها ، ثم قَسَم بقيته ولم يَدْخَر لِعياله شيئا

---

(١) الضغاء أصله : صياح الذئب والثعلب وغيرها ثم كثر حتى قيل للانسان إذا شُقَّ عليه فاستغاث أو بكى بصوتٍ ذليل

(٢) يعمله كَبَابا وهو اللحم يُقْلَى أو نوع من ذلك يسمونه الطَّبَاهجة (معرَّب عن الفارسية)

فبمثل هذا كان يبعد ذكر جوده ، ومَبْلَغُ ما يجود به قَصْدٌ . واعطي غيرُه الكثيرَ وَأُعطىَ من الذّكر القليل

ولقد حدَّث محمد بن صالح بن داود قال : ركبنا مع عمّى - يعقوب بن داود - الى يحيى بن خالد بن بَرْمك ، قال : فكلَّمه فى حوائج للنّاسِ تبلغُ ثلاثة آلاف درهم فقَضاها كلّها ، ثم قال : له : قد رأيتُ قِلَّةَ وفاءِ الناس لك على كثرةِ مَعْرُوفك عندهم ؛ فلو سألتَ لنفسك ! فأَبى أن يسألَ إلاّ لهم ، وسأله أن يُسْكِنَهُ مكّة ففعل ، وأجرى عليه فى كل سنة خمسمائة ألف درهم سوى ماحمله اليه من الطعام من مصر

وأخبرنا أبو أحمد ، عن الصولى ، عن [محمد بن[1]] القاسم ابن خلاد قال : حدثنى محمد بن عمرو قال : خرج كَوْثَرٌ — خادم الامين محمد — ليرى الحرب ، فأصابته رجمة فى وجهه فجلس يبكى ، فوجَّه محمّد من جاء به وجعل يمسح الدّمع عن وجهه ، ثم قال :

(١) هذا التصحيح فى السند من تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٣٩ وفيه هذه القصة كلها

ضَرَبوا قُرَّةَ عيني ولأَجْلِي ضَرَبُوهُ
أَخَذَ اللهُ لِقَلْبِي من أُناسٍ أَحْرَقُوهُ

وأراد الزيادة عليها فلم يُوَاتِهِ طبعُه ، فقال للفضل بن الربيع : مَن ههنا من الشعراء ؟ قال : الشاعر عبد الله بن أيوب التميمى . فقال : علىّ به . فلمّا دخل أنشده البيتين وقال : قل عليهما . فقال :

مالِمَنْ أَهوى شبيهُ فَبِهِ الدُّنيا تَتِيهُ
وَصْلُهُ حُلْوٌ وَلٰكِنْ هَجْرُهُ مُرٌّ كَرِيهُ
مَنْ رأَى الناسُ له الفَضْلَ عليهم حَسَدُوهُ
مِثْلَ ما قد حَسَدَ الـ قائِمَ بالمُلْكِ أَخُوهُ[1]

فقال محمد : هذا والله خير مما أردت ، بحياتى عليك ياعبّاسى إلا نَظَرْتَ ، فإن كان جاءَ على الظَّهر ملأْتَ أَحْمَال ظهره دراهم ، وإن جاء فى زَوْرَق ملأْته له . فأوقر له ثلاثة أبغُل دراهم

وغنّاه ليلة ابراهيمُ بن المَهْدِىّ :

ياأمينَ اللهِ! عِشْ أَبَدًا ، دُمْ على الأيَّامِ والزَّمَنِ

(١) يعنى بذلك المأمون

أَنْتَ تبقَى والفَنَاءُ لَنا ، فإِذا أَفنَيْتَنَا فكُن

فقام من مجلسه وأكبَّ عليهِ وقبَّل رأسَه ، فقام ابراهيم فقَبَّلَ أسفلَ رجليه وما وَطِئَتا عليه من البسَاط ، فأمر له بثلاثة آلاف دينار . فقال ابراهيم : ياسيدى ! قد أَجَزْتنى الى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، قال : وهل هى إلا خَرَاجُ بعض الكُوَر[1] ؟

وقال يوماً لبعض غِلمـانه : وَيحَك ، أما تَغْسِلُ ثيابَك ، قُمْ وخُذْ ثلاثين بَدْرَة[2] واغسل بها ثيابك ، فذهب وقبضها

ورأى رجلٌ ليحيى بنِ خالدٍ رؤيا أيَّام الهـادى فأخبره ، فخاف يحيى أن يكون دُسَّ عليه فانتَهرَه وتوعَّده ، فلما استُخْلِف الرشيد دخل اليه ، وكتب إلى بعضِ العُمّال فدفع اليه خمسمائة ألف درهم

وسأل يحيى مُؤَدِّبَ ابنه ابراهيم عن حاله فقال : تَعلَّمَ كذا ، وحَفِظَ كذا ، واتَّخَذَ له من الضياع كذا . قال : لم أسألك عن هذا فقال : عمَّ يسأل الوزير؟ قال : أَتَّخَذْتَ له مِنَناً فى أَعنَاق الرجال؟

(١) جمع كورة : وهى المدينة أو الصقع

(٢) البدرة : كيس يكون فيه قدر معين من المال

قال : لا ؛ قال : بئس الخَلِيطُ أَنْتَ . فأمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ليُفَرِّقها عنهُ فى الناس . قال : فوالله لقد فرَّقنا فى أقوام ماندرى من هم

وكان محمد بن خالد بن برْمك ما يَستامُ عليه سائِم[1] إلا قبله ، ونهى وكلاءه عن المِكاس[2] ؛ وكان الجدْىُ يُشْترى له بألف درهم ؛ وباقةُ الريحان بخمسمائة درهم

وكان الفضل بن يحيى أمر بأن تحمل صُرَر الدنانير فتلق فى عتَبِ أبواب جيرانه بالليل ، فإذا أصبحوا وجدوها ، فرُبَّما بلغ ذلك فى الليلة الواحدة مائة ألف ... وكانَ إذا جاء الشتاء تصدَّق بجميع ما فى خزائنه من كُسْوَة الصيف ، وإذا جاء الصيف تصدَّق بجميع ما فيها من كُسْوة الشتاء . وما روى مثل هذا الجود عن أحد فى أوّل ولا آخر ، فقال فيه أبو قابوس الحِيرىّ :

رأى اللهُ للفضْل بن يحيى فَضيلةً
فَفَضّلهُ ، واللهُ بالناسِ أَعْلَمُ

(١) يستام : يعرض البيع ويغالى فيه ، والسائم : البائع
(٢) ماكسه مماكسةً ومكاساً : شاحّه لينقص من الثمن

له يَوْمُ بُؤْسٍ فيه للناس أَبْؤُسٌ (١)
ويومُ نعيمٍ فيه للنَّاسِ أَنْعُمُ

وقال أبو النضير [عمر بن عبد الملك (٢)] :

ويَفْرَحُ بالمولودِ من آل بَرْمَكٍ
بُغَاةُ النَّدَى والرمحُ والسيفُ ذُو النَّصْلِ
وتَنْبَسِطُ الآمال فِيهِ لفَضْلِهِ ،
ولا سِيَّما إِنْ كان من وَلَدِ الفَضْلِ

وقال آخر :

إذا نَزَلَ الفضلُ بن يحيى بِبَلْدَةٍ ،
رأيتَ بها عُشْبَ السَّماحة يَنْبُتُ

ووجّه المأمون إلى طاهر بن الحسين بمائة ألف دينار ، فصادفه الرّسول وهو راكب فثَنَى رجلَهُ على ظَهْرِ فرسه فقسَّمها وسار ولم يَبْقَ منها دينار واحد

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران ؛ عن عبد الرحمن بن جعفر ،

---

(١) يعنى يوم الحرب
(٢) فى الأصل « أبو البصير » وأثبتنا اسمه بين قوسين وهو زيادة من عندنا

عن الغـلابىّ ، عن ابراهيم ، عن الاصمعىّ قال : لمـا وَلدت ابنة جعفر محمداً قال مروان بن أبى حفصة :

لِلّه درُّكِ يا عقيــلةَ جَعْفَرِ
ماذا ولدتِ من النَّدَى والسُؤدُدِ !

إنَّ الخـلافةَ قد تبيَّنَ نُورُها
للنَّاظِرينَ على جَبِينِ مُحَمَّدِ

إنِّى لأَعْـلَمُ إنّه لخليفَــةٌ
إنْ بَيْعَةٌ عُقِدَتْ وإنْ لَمْ تُعقَدِ

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار ، وأمرت زبيدة أن يحشى فُوهُ جوهرا ، فكانت قيمة الجوهر عشرة آلاف دينار

وأخبرنا أبو القاسم ، عن عبد الرحمن ، عن الغـلابىّ ، عن سعيد بن محمد الخراسانى قال : دخل ابن أبى المخيّس على المَهْدِى — وكان أعرابياً بَدَوياً — فأنشأ يقول :

خليفةَ اللهِ المُصفَّى بالْكَرَمْ
يا خَيرَ من طَبَّق نَعْلاً بقَدَمْ

فَدَتْك نفسى من مَعَاريض السقَمْ
عُذْتُ بقبْرِ الهاشِمِىّ بالْحَرَمْ

بقبرِ عبدِ اللهِ ذى الأنفِ الاشَمّ[1]

وعذْتُ بالمَهْدِىِّ مِنْ دَيْنٍ جَثَمْ ...

عَلَىَّ حتى سُلَّ جسمى فانْهَدَمْ

فَجَلِّ عَنّى غُمَّةً من الغُمَمْ

فقال المهدىّ: نِعمَ مَلاذُ خَلّتك[2] يا ابن أبى المخيّس. حاجتك! قال: دَيْنى. قال: فكم هو؟ قال: خمسة آلاف درهم، قال: ياغلام! أعطه إياها. فلما رأى أنه قد أَمرَ له بها، التفتَ إليه وقال: بقَرَابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ جَعَلْتها دنانير، قال: اجعلوها دنانير!

وأخبرنا أبو القاسم، عن عبد الرحمن، عن الغلابى، عن الزبير قال: استنشد المهدىُّ جدّى عبدَ الله بن مُصعب نسيباً حلواً فأنشده قول الأحوص:

---

(١) قبر الهاشمى الذى بالحرم هو قبر أبى جعفر المنصور واسمه (عبد الله) كما ذكره هنا، وقد دفن أبو جعفر ببئر ميمون بأعلى مكة. والمهدىّ ولد أبى جعفر

(٢) فى الأصل «ملاء جلدك» ولعلّ الصواب ماتوهمناه فأثبتناه. والخَلّةُ الحاجة والفقر

خمسٌ دَسَسْنَ إليَّ فى لَطَفٍ حُورُ العيُونِ نواعمٌ زُهْرُ(١)
فَطَرَقْتُهُنَّ مع الرَّسولِ وقد نام الرقيبُ، وحلّقَ النَّسْرُ(٢)
مُسْتَبْطِناً ـ لِلْحَىّ إن فزعوا ـ عَضْباً يَلوح بِمَتْنِهِ أثَرُ(٣)
فَمَكَثْنَ، لَيْلَتَهُنَّ ناعِمَةً حتى استفقْنَ وقد أضا الفجرُ(٤)
بِأَشَمَّ، معسولٍ مُزاحتُهُ، غَضِّ الشّبابِ، رِداؤه غَمْرُ(٥)

(١) ذكر الأبيات بتمامها أبو الفرج فى الاغانى ج ١٦ ص ٨٩ (الساسى) وقد وضعنا الزيادة التى بين الأقواس من الاغانى إذ بغيرها تضعف الأبيات

دسسن فى لطف: سِرْن فى رفق متخفيات؛ زُهْر: جمع زهراء، من الزُّهْرة وهى البياض النيّر كاللؤلؤة

(٢) النسر: أحد النسرين من نجوم السماء وهما الطائر والواقع. وتحليقه ارتفاعه وذلك فى أوسط الليل

(٣) استبطن السيف جعله تحت خصره، والعضْبُ: السيف الماضى، والأثْر: مايكون بالسيف من ديباجته وفرنده ولمعانه

(٤) أضا: مسهلة عن اضاء. وفى الاغانى «بدا»

(٥) الاشم: هو هنا السّيد الكريم ذو الأنفة. معسول مُزاحته حلو الفكاهة والدعابة. الغمرُ الواسع، ويقولون رجل غَمْرُ الرداء يعنون بذلك أنه واسع الخلق سخىّ كثير المعروف وإن كان رداؤه على الحقيقة صغيرا

[زَوْلٌ بعيدُ الصيِّت مُشْتَهِرٌ جابَتْ له جَيْبَ الدُّجى عَمْرُ (١)]

قامَتْ تُخَاصِرُهُ لِكِلَّتِها تَمْشِى التَّأَوُّدَ غادَةٌ بِكْرُ (٢)

[سيفانة أَشَرُ الشباب بِها رَقْرَاقَةٌ لم يُبْلِها الدَّهرُ (٣)]

وتراجَعَا من دُونِ نسوَتِها كَلِماً تُسَرُّ كأَنَّها سِحْرُ

كُلٌّ يَرَى : أَنَّ الشبابَ لهُ - فى كلِّ غايةِ صَبْوَةٍ - عُذْرُ

---

(١) ورد هذا البيت فى الاغانى هكذا :

« زرن بعيد الصيت مشتهر جيبت له جيب الرحى عمرو »

ولا معنى له ، واجتهدنا فلم نعثر عليه ، فتوهمنا صحته فيما أثبتنا . والزولُ : الغلامُ الخفيف الروح الظريف وجيبُ الدُّجى : ثوبُه المظلم الأسود وجَابَتْ : شقّتْه بنورها وحسنها . وعَمْرُ : عَمْرَةُ اسم امرأة عناها ، إذ أنه فى البيت قبل ذلك ذكر نسوة فقال « فعكفن » ثم قال فى البيت الذى بعد هذا « قامت تخاصره » ولا يستقيم البيت إلا اذا ذكر امرأة بعينها قبله

(٢) تخاصره : يدها فى يده . والكلّةُ . خدرها

(٣) سيفانه : ضامرة البطن شطبة كأنها نصل سيف . والأَشَر : المَرَحُ والنشاط وأصله فى الاغانى «أمر» ولم نتبيّن لها معنى . والرقراقة البرّاقةُ كأَن الماء يجرى فى وجهها

حتّى إذا أَبْدَى مَوَدَّتَهــا وَبدا هَوَاها ماله سِتْرُ[(١)]

سَفَرَتْ ـ وماسَفَرَتْ لِمَعْرِفَةٍ ـ وَجْهاً أَغرّ كأنّه البَدْرُ

وأنشده لصخر بن الجعد [الخُضْرىّ] [(٢)] :

[هنيئاً لكأسٍ قَطْعُها الحَبْلَ بعد ما

عَقَدْنا لكأسٍ موعداً لانَخُونُها[(٣)]]

وإِشْماتُها الاعداءَ حينَ تألَّبُوا

حَوَالىَّ ، واشتَدَّتْ علىَّ ضُغُونُها[(٤)]

فإِن تَصْرمي ، وكَلَّتِ عينىَ بالبكا ،

وأَشمتّ أعدائى فقَرَّت عُيونُها

فإِنَّ حَراما أَنْ أَخُونَك ، ما دَعا

مع اللَّيْلِ قُمْرِىُّ الحمامِ وجُونُها[(٥)]

(١) فى الاغانى « حتى إذا أبدى هواه لها »

(٢) ورد شعر صخر فى الاغانى (ساسى) ج ١٩ ص ٦٧ و ٦٨ وقد أثبتنا الزيادات بين أقواس كما ترى لجودة هذه الكلمة

(٣) كأس هى صاحبته ، وله معها حديث طويل

(٤) الضغون جمع ضغن وهو الحقد

(٥) فى الأغانى وغيره « ببُلْبُلَ قمرىّ الحمام » ولعلّه موضع ببلاد

وماطَرَد الليلُ النهارَ ، وما بَـكَتْ
على شجر وَرْقاءُ شاجٍ رَنينُها
وقد أَيقَنَتْ نفسى بأن حِيلَ بينَها
وبينك لو يَأْتى بيأسٍ يقينُها
وَلكِنْ أبتْ أن تَستْفيق، ولا ترى
سُلُوًّا ولا مَجْلُودَ صَبْرٍ يُعينُها(١)
[لوَ أنَّا إذِ الدنيا بنَا مطمئنَّةٌ
دَجا ظِلُّها ثم ارجحنَّتْ غُصونُها(٢)
لَهَوْنا ، ولكنا بِغِرَّة عَيْشنا
عَجبْنَا لدُنْيانا فَكِدْنا نَعينُها(٣)
وكنَّا إذا نحنُ التقينا ، وما نَرَى
لِعَيْنَيْنِ إلاّ من حجابٍ يَصُونُها

الْخضْر ، والقمرىّ ضربٌ من الحمام أبيض . والجُون : بضم الجيم جمع جَون بفتح فسكون وهو من الحمام أسود مشرب بحمرة

(١) فى الأصل « أبت لى أن تستبل يوما وأن ترى » ورواية الاغانى أوضح . والمجلُود : الجَلَد وهو أحد المصادر التى جاءت على مفعول

(٢) دجا : امتدَّ وانبسط . ارجحنّ : اهتزّ

(٣) بفتح النون من عان الشىء يعينه إذا أصابه بالعين

أخذنا بأَطراف الأَحاديث بيننا
وأوســـــاطها حتى تُمَلَّ فُنونُها]

فأعطاه سبعة آلاف دينار

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران ، عن عبد الرحمن بن جعفر ، عن الغلابى ، عن جعفر بن أحمد النوفلى ، عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان قال : كان بالبَصْرة فتى من بنى تميم ، . . . وكان شاعراً ظريفاً فاستشارنى فى مَدْح المأمون وقَصْدِه : فلم أشر عليه به ؛ لقِلَّة رغبة المأمون ـ كانَتْ ـ فى الشعر ؛ فقال : رُبَّما زَهِدَ الرَّجل فى الشيء ثم أقْبَل عليه . فخرج والمأمون « بسَلَغوس[١] » قال : فخرجت بسَحَرَ نحوَ العَسْكر فلقيت رجلاً على بغل أسود ما رأَيتُ مثله ، فسأَلنى عن مَقْدَمى ، فذكرتُ له أَنَّى قصـدتُ

(١) فى الاصل « بسفلوس » ولم نجدها ولعلّ الصواب ما أثبتناه فان المأمون غزا حصناً من حصون الثغور بعد طرطوس اسمه « سَلَغُوس » بفتحتين ثم ضمَّة . وقد ذكر الطبرى فى تاريخه سيره اليه فى أحداث سنة ٢١٧ ثم ذكر شخوصَه منه الى الرقة فى أول أحداث سنة ٢١٨ . وقد ذكر الطبرى هذه القصة عن محمد بن أيوب نفسه بأطول من هذا وأضبط معنى فراجعها فى ج ١٠ ص ٢٩٧ و ٢٩٨

المأمون بشِعْر خفيف حُلو ، فاستنشدنيه فقلتُ : إنما قصدت الخليفة ، فقال : أنشدنيه فإن كان على ما تصف لأصلنَّك ، ولأحملنَّك على بَغْلى هذا ، فأنشدته :

مَأمونُ ! ياذا المِنَن الشَّريفه ، وصاحبَ المرْتبةِ المُنيفهْ
وقائدَ الكَتيبةِ الكثيفهْ ، هل لك فى أُرْجوزة ظريفهْ ؟
أظرف منْ فِقهِ أبى حَنيفه ، لا والذى أنتَ له خليفهْ ...
ما ظُلِمَتْ فى أرْضِنا ضَعيفه ، أميرُنا مؤُنته خَفيفَهْ
ما يَجتَبى شيئا سِوَى الوَظيفهْ فالذئبُ والنعجةُ فى سَقيفهْ
واللِّصُّ والتاجرُ فى قَطيفهْ

قال : فضحكَ واستَطاب الشعر ، وأومأَ الى واحد من غِلمانه فجاء يرْكضُ ، فقال : كم معك ؟ قال : ثلاثة آلاف دينار ، قال : أبْذُلْها الى السّعْدِىِّ . ثم قال : وَفّينا لكَ ؟ قلتُ : واللهِ ما هذا وَفاء ، هذا عطاءُ البحر اذا زَخَرَ ، وضرب كَفَلَ بَغْلِه وانصرف

فهؤلاء — أيّدك الله — أعطوا هذا الكثيرَ ولم يَحظَوْا من الذكر بما حَظِيَ به مُعْطى القليل . فليس ينبغى أن يُستَحْيَ من

إعطاءِ ما كَسَبَ مثله الذكرَ الباقى فى الأعْقَاب ، المُستغرِق لِمَدَى[1] الأحقَابِ ، الذى لا تقْدَح فيه الأزمَان ، ولا تتحَيَّفه صُروف الحَدَثان

وأنشدنا أبو أحمد ، عن أبى بكر :

وكنتُ إذا دُعيتُ الى طَعَام
أَجَبْتُ ، ولم يكُنْ مِنّى توَانِ
ظَلِلْنا ـ من بَشَاشَتِنا ـ كأَنَّا
بِيَوْمٍ لَيْسَ مِنْ هذا الزَّمانِ

فذكر أنّه إذا دُعى إلى طعام لم يَكِدَّ فى تحصيله سُرَّ سروراً وبشَّ بَشاشة ليس له بمثلِها عَهْدٌ فى زمانه

وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : كُنَّا نَعُدُّ لَمُقْرِضَ بخيلا ، إنما كانت مُواساة

ومما هو داخل فيما نحن فيه قول أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : « إنَّ صدقةَ أحدِكم يقبَلُها اللهُ ويُرَبِّيها كما يُرَبِّى أحَدُكم فِلْوَهُ وفَصِيلَهُ ، حتى اللُّقْمَةُ تَصيرُ مثل أُحُدٍ »

(١) فى الاصل « لمدّى » وهو خطأ

وقالت بعضُ النساء : يا رسولَ الله ! إنهُ يأتيني السائلُ فأتزهَّدُ له بعضَ ماعندي[1]، فقال : ضعِي في يدِ المسكين ولو ظِلفاً مُحرَقاً

وقال عبد الله بن مسعود : كان راهبٌ عبدَ اللهَ ستين سنة ، فنزلتْ به امرأة فواقعها ستَّ ليال ، ثم ندمَ فهرب ، فأتى مسجداً فمكثَ ثلاثاً لايطعمُ ، فأُتِيَ برغيف فأعطى نصفه رجلاً عنْ يمينه ، ونصفهُ رجلا عن يساره ، ثم قبضه الله ؛ فوُضع عمل ستين سنة في كِفَّة ، ووضعت السيئة في كِفَّة فرجحتْ . فجِيءَ بالرغيف فرجحَ بالسيئة

وكان عند عائشة طبقُ عنب ، فجاء سائل فدفعت اليه حبَّةً واحدة منه ، فضحك نساءٌ كُنَّ عندها فقالت : إنما فيما ترينَ مثاقيلُ ذرٍ كثيرة ..... أرادت قول الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ »

وسأل رجل ابن عبيد الله بن زياد فأعطاه درهما ، فقال : أصلحَ اللهُ الامير ، صاحب العِراق وخليفةُ أميرِ المؤمنين يُعطِي

(١) تتوخى أن تعطيه الزهيدَ : القليل الحقير

درهماً! فقال: نَعَمْ، إنّ مَنْ بيَدِهِ خزائنُ السماوات والأرض رُبّما رَزَق أخصّ عباده وأقربَهُمْ منه وسيلةَ اللُّقْمَةَ والتَّمْرة، فما يَكْبُرُ عندى أن أَصِلَ رجُلاً من اخوانى بمائة ألفِ دِرْهم، ولا يصغُر عندى أن أُطْعِمَ سائلاً رغيفاً - اذا كان الجواد الكريم يفعل ذلك

ومثلُ هذا الخبرِ خبرُ المنصور مع «سَلْمٍ الحادى» وقد ذكرناه فى «كتاب الدينار والدرهم» ونورده ههنا لمجانسته ماقبله. وهو الذى أخبرَناه أبو أحمد، عن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن ابن الفضل، عن ابراهيم بن السندى بن شاهك، عن الفضل ابن الربيع، عن أبيه قال: حدا «سَلْمٌ الحادى» بين يدىْ أبى جعفر بطريق مكة وهو حاجّ:

أَغَرُّ بَيْنَ حاجبَيْهِ نُورُهُ ... إذا تَغَدَّى رُفِعَتْ سُتُورُهُ

يَزِينُهُ حَياؤُه وخِيرُهُ ... فتًى، قليلٌ فى الوَرَى نَظِيرُهُ

يضحَكُ من بَهائِه سريرُهُ ... ومِسْكُهُ يَشُوبُهُ كافورُهُ

أَوْدَى الصِّبا، ونَفِدت زُهُورُهُ،

والقَلْبُ قَدْ أَلْهَبَهُ سَعِيرُهُ

والحبُّ داءٌ هالكٌ أسيرُهُ لا شيء يُردِي الهمَّ أو يُثيرُهُ

إلا رَوَاحُ الصبِّ أو بُكورُهُ فوقَ خِدَبٍّ جائلٍ ضُفورُهُ(١)

قال فاستحسن أبو جعفر الأبيات وضرب برجله وقال: ياربيع! أعطه نصفَ درهم، فقال: يا أمير المؤمنين! نصف درهم؟ لقد حدوتُ بها بين يَدَيْ هشام فأمر لى بمائة ألف درهم. فقال: مائة ألف درهم من مالِ الله! ما كان له أن يُعطِيَكَها، وما كان لك أن تأخُذَها، ياربيع! استخرجها منه. قال: يا أمير المؤمنين! قد والله وصلتُ بها القَرابة، وحملت بها الكَلّ، وأنفقتُها على الوَلَد، وما بَقِيَ منها شيء. قال: فما زلتُ أَسْفِرُ بينه وبينه حتى ضَمِنَ أن يَحْدُوَ به ذاهباً وجائياً، ولا تلزَمُهُ مؤونة؛ فقلب بعضُ الشعراء هذا المعنى فقال:

كُوَيْتِبٌ يرفَعُهُ تصغيرُهُ كأنّما تصغيرُهُ تكبيرُهُ

لم يُرَ فى سُقُوطِهِ نَظِيرُهُ الكلبُ من أخلاقِهِ يَمِيرُهُ

والقِرْدُ يَحْكِيهِ ويَستعيرُهُ أقبحُ من ظاهِرِه ضميرُهُ

---

(١) الخدبُّ من الاباعر الصلب الشديد الضخم. والضفور: جمع ضُفْر وهو ما يُشَدُّ به البعير من الشعر المضفور، والكناية فى قوله « جائل ضفوره » عن هزاله وضعفه من جهد السير له

إذا تَغَدَّى أُطْبِقَتْ سُتُورُهُ ... وسُمِّرَتْ أبوابُه ودُورُه

وحُرِسَتْ حِيطانُه وسُورُهُ ... والدَّيْدبانُ فَوْقَها ناظُورُهُ (١)

وقام عنـدَ سِتْرِهِ نَذيرُهُ : ... لا يَقْرَبُ البابَ ولا يَطُورُهُ (٢)

خَلْقٌ من النَّاس ، ولا يزُورُهُ ... إلاَّ شقيٌّ غَرَّهُ غُرُورُهُ

فإنْ دَنا أَحْرَقَهُ سَعِيرُهُ ... وكُسِّرَتْ سَاقاهُ ، لا يُجِيرُهُ

خَلْقٌ ، ولا يُرْجى له جُبُورُهُ ... حتَّى إذا استَوْفَى وطَمَّ بيرُهُ (٣)

ثم عَلاَ من كِظَّةٍ زَفيرُهُ ... وأُحْصِنَتْ من بعدِها قُدُورُهُ

وأُثْبِتَتْ من خُبْزِه كُسُورُهُ ... وحُصِّلَتْ فَضَلاتُهُ وسُورُهُ (٤)

ودارَ فى الدَّارِ بها وَزِيرُهُ ... وصارَ في دِيوانه تَوْفيرُهُ (٥)

عاد إليهِ عائداً سُرُورُهُ

قال : وسمعت أصحابَنا يتحدَّثون أنَّ رجلا حَمَل لرجل حِمْلاً وبلغ به غايةً بعيدةً ، فأعطاه « قيراطًا » فاستَحْقَرَه واستزادَهُ ،

(١) الناظور والناطور : حافظ الزرع والكرم

(٢) طارهُ يطورهُ : حام حوله ودنا منه

(٣) طمَّ . امتلأ ويعنى بالبئر بطنه فى سعته

(٤) سوره : مخففة من سؤره وهو بقية الماءِ فى الاناءِ

(٥) فى الاصل « تزفيره »

فقال : أتستحقره ، وإنك لو اشتريت به رغيفاً فأكلته دفعت به يومك ، وكسبت عليه أضعافه ؟ أو قربة ماءٍ كفاك فى شربك وطهورك يومين ؟ أو باقة بقل زينت بها مائدتك ، وطبت فى أكلك ؟ أو ملحاً أجزأك فى طبيخك وغيره أياماً ؟ أو أشناناً كفاك فى تطييب يدك مدة ؟ أو دخلت به الحمام نقيت جسدك ؟ أو ابتعت به الصابون نظفت به ثوبك ؟ أو احتجت إلى عبور نهر كان مقنعاً لملاحك ، إلى غير ذلك من المنافع ؟ لقد صغرته عظيما ، واستحقرت جسيما . فانطلق الرجل به ولم يماكسه

وقريبٌ من ذلك أن رجلا قال لرجل : ادفع لى دُرَيْهِما ، فقال : أتصغره ؟ إنه عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر ديتك (١)

وذكر أن بعض الهاشميين زار محمد بن بشير فأحضره خبزاً قد أتت عليه أيامٌ ، وتمراتٍ ، فقال الهاشمىُّ : هذا جود الأذواء . . . ، يريد أنه من اليمن ، فقال محمد :

(١) فى الاصل « دينك » بياء ثم نون ولا معنى له ، والصواب ما أثبتناه لان الألف قريب من عشر دية المسلم وذلك أن دية المسلم الحر اثنا عشر ألف درهم

لقِلَّ عاراً - إذا ضَيْفٌ تضيَّفَنِي -
مَا كان عِندي ؛ إذا أعطيتُ مَجْهُودِي
جُودُ المُقِلّ إذا أعطاكَ نائلَه ،
ومُكْثِرٍ في الغنى ، سِيَّانِ في الجودِ (١)

وقال غيره :
أُقِلُّ وأُثْرِي ، كُلُّ ذاكَ يَسُرُّنِي ؛
ولِلدهرِ والإنسانِ حالٌ تَقَلُّبُ
ويَلْزَمُنِي حقٌّ فلا أستطيعهُ ،
ولا ينفعُ الرَّاجِينَ أهلٌ ومَرْحَبُ
وما أَبْطَلَ الإعدامُ حقًّا لراغبٍ ،
ولكِنَّه في حالةِ اليُسْرِ أوْجَبُ

ومثل هذا - أيدك الله - كثير ، وفيما سقته إليك كفاية لك . . . إن شاء الله تعالى »

تمَّ

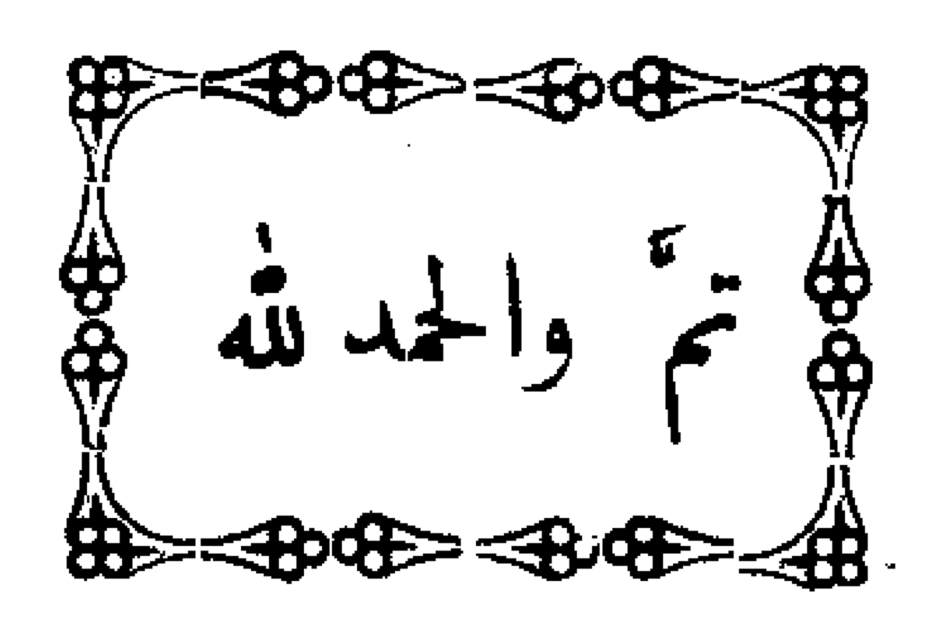
(١) حق المعنى ان يقول « ومكثر من غنى »

فهرس
كتاب
فضل العطاء على العسر

لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

صفحة

صفحة


تمّ والحمد لله

الحنين الى الأوطان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

جمع فيه أبلغ وأبدع ماقالته العرب نظماً ونثراً فى حنينها الى أوطانها ، ووصف هذه العاطفة البشرية التى فاقت فيها أمةُ العرب جميعَ أمم الارض

صححَ أصلَه العلّامةُ المحقّق

الشيخ طاهر الجزائرى

رحمه الله

طبعة ثانية منقّحة فى المطبعة السَّلَفية سنة ١٣٥١

فى ٤٥ صفحة * ثمنه قرشان

الميسر والقداح

لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة

تضمن بيان حقيقة الميسر والقداح فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، وأنهم كانوا يفعلونه بدافع من عاطفة الرحمة اذا أصيبت مسارح القبيلة بالجدب ، فيقترع سراة القبيلة وأغنياؤها بالقداح فمن أصابته القرعة كان عليه أن يذبح من سوائمه ومواشيه لفقراء القبيلة يشبعهم من لحومها

ألّف هذا الكتاب أديب العربية الاكبر عبد الله بن مسلم ابن قتيبة ، واستنبط أحوال العرب فى هذا الباب من أشعارهم فجعل يتدبّرها ويستدلّ على كيفية لعب العرب بالقداح باعتبار ماذكروه فى أشعارهم عنها

حقق هذا الكتاب ، وشرحه ، ونشره

محب الدين الخطيب

١٧٣ صفحة * ثمنه ٥ قروش

تقويمنا الشمسى

بقلم محبّ الدين الخطيب

خلاصة تاريخيــة لما كان عليه التقويم الشمسى عنــد العرب قبل الاسلام و بعده ، وكيفَ كانوا يؤرّخون ، وما هى الاشهر التى كانوا يستعملونها للدلالة على الاوقات بسير الشمس

وفى هــذه الرسالة دعوةٌ موجهة الى الحكومات الاسلامية لاتخاذ تاريخ شمسىّ هجرى ذى أشهر أسماؤها عربية بنظام أتقن من التاريخ الافرنجى وغيره من التواريخ المعروفة الى الآن

٢٨ صفحة * ثمنه قرشان

أيمان العرب في الجاهلية

لأبى اسحاق ابراهيم بن عبد الله النجيرمى

كاتب الدولة المصرية فى عهد كافور

أوراد فيها جميع الصِيَغ التى كانت تستعملها العرب فى جاهليتها اذا أراد الواحد منهم أن يحلف يميناً

نسخها وصححها ووقف على طبعها

محب الدين الخطيب

نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية ، و نسخة دار الكتب المصرية

مع تعليقات و تحقيقات مهمة

وبأوله ترجمة المؤلف

٣٢ صفحة * ثمنه قرشان

بعض مطبوعات

المطبعة السلفية ومكتبتها

۱۱ شارع الابودية (درب الجماميز) بالقاهرة

ص	
۱۵	المنتقى من محاضرات الشبان المسلمين جزءان
۲	نقد علمي لكتاب الاسلام واصول الحكم للعلامة السيد محمد الطاهر بن عاشور
٤	منطق المشرقيين للرئيس ابن سينا
۲	الجواهر الكلامية في ايضاح العقيدة الاسلامية للعلامة الشيخ طاهر الجزائري
٥	الغارة على العالم الاسلامي
٥	السياسة الشرعيه أو نظام الدولة الاسلامية للاستاذ خلاف
۱۰	كتاب الخراج ليحيي بن آدم القرشي
۳	نظام النفقات في الشريعة الاسلامية للاستاذ الشيخ احمد بك ابراهيم
٦	حياة الامام ابي حنيفة للاستاذ الشيخ سيد عفيفي
٦۰	الحديقة (مختارات) لمحب الدين الخطيب ۱۲ جزءا
٤	مكارم الاخلاق ومعاليها (من الحديث) للحافظ الخرائطي
٤	البرهان القاطع في اثبات الصانع لمحمد بن ابراهيم الوزير
٤	موجز في التربية وعلم النفس للاستاذ الشيخ حسين سامي
۲	نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الاربعة وانتشارها لاحمد تيمور باشا
۲	ابواب مختارة في اللغة للاصفهاني
۲	مااتفق لفظه واختلف معناه من القرءان المجيد للمبرد
۳	التذكير بالمرجع والمصير للشيخ كمال الدين الادهمي
۳۰	نيل الوطر في تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر جزءان) للسيد محمد زباره
۱۲	تاريخ اليمن للشيخ عبد الواسع اليمني
۱٫٥	دعوة نصارى العرب الى الدخول في الاسلام للاستاذ خليل اسكندر قبرصي
۳	الاخلاق للاساتذة محمد توفيق قداح وعبد المنعم البسيوني ومحمد سليم متولي